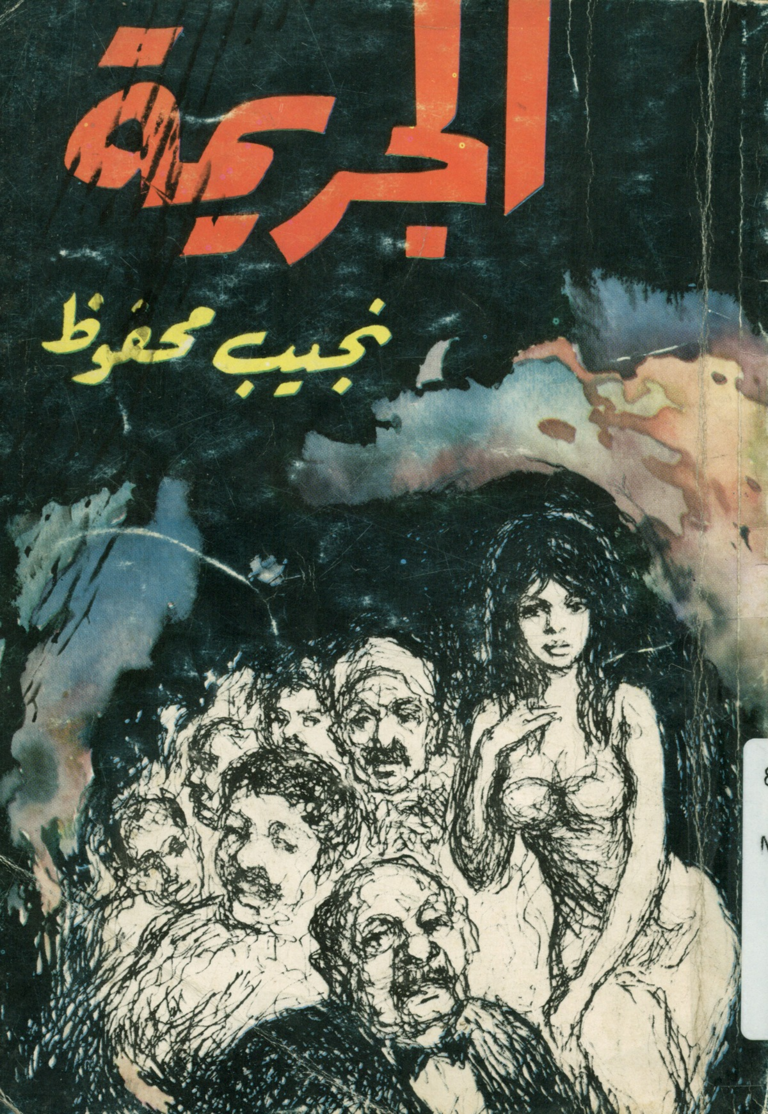


الجريمة
نجيب محفوظ

مطبوعات مكتبة مصر



تأليف

نجيب محفوظ

الناشر : مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي الفجالة
سعيد جودة السحار وشركاه

دار مصر للطباعة
٣٧ شارع كامل صدقي

المطاردة



مسرحية من فصل واحد

(المسرح خال تماما . يدخل شابان فى ميعة الصبا . يرتدى أولهما قميصا أبيض وبنطلونا رماديا قصيرا وحذاء من المطاط ، ويرتدى الآخر قميصا أحمر وبنطلونا أزرق وحذاء من المطاط . سنطلق على الأول « الأبيض » نسبة الى قميصه والآخر الأحمر نسبة الى قميصه أيضا . ينظران فيما حولهما باستطلاع واهتمام) .

الأبيض : مكان مناسب وبه كل ما نحتاج اليه .

الأحمر : انه مكان على أى حال ونحن فى حاجة الى مكان .

الأبيض : (كمن يتذكر) يخيل الى أننا لعبنا فيه من قبل .

الأحمر : (هازئا) دائما تقول ذلك ..

الأبيض : أو لعله قريب الشبه منه .

الأحمر : المهم أنه مكان صالح للعب .

الأبيض : هذا هو المهم حقا .

الأحمر : وهو بعيد فلن يهتدى اليه .

الأبيض : أرجو ذلك .

الأحمر : لعله يجد ما يشغله عنا .

الأبيض : لعله .

الأحمر : كأنه لا هم له الا التطفل علينا .

الأبيض : لو نوفق الى تجاهله !

الأحمر : كيف وهو لا يتركنا لحالنا ؟

الأبيض : فلنلعب .

الأحمر : فلنلعب .

الأبيض : لنلعب لعبة الأحلام .

الأحمر : انها مضجرة وخير منها الملاكمة .

الأبيض : الملاكمة رياضة عنيفة فلنجر فى الهواء الطلق .

الأحمر : (ساخرا) أنت جبان .

الأبيض : (باسما) أنت حيوان .

(يتوثبان لبعضهما فى تحـد ــ يتراجعان وهما يرهفان السمع فى قلق) .

الأبيض : ماذا هناك ؟

(الأحمر يشير اليه بالسكوت ويرهف السمع) .

الأبيض : سمعت شيئا ؟

الأحمر : وقع أقدام !

الأبيض : حقا ؟ !

الأحمر : اسمع ولا تتكلم .

الأبيض : (مرهفا السمع . وقع الأقدام يتضح) وقع أقدام حقــا .

الأحمر : هو ؟

الأبيض : أو أى ذ قدمين .

الأحمر : لا تتظاهر بعدم الاهتمام .

الأبيض : أنا لا أحسن التظاهر ولا أحبه .

الأحمر : ألا يزعجك حقا ؟

الأبيض : بلى ، ولو لدرجة ما .

(تقترب الأقدام . يدخل رجل متين البنيان ، قوى بصورة واضحة ، يرتدى قميصا أسود وبنطلونا أسود وبيده سوط . رغم قوته وشباب ملامحه فانه لا توجد شعرة سوداء واحدة فى رأسه الأبيض .

تنحى الشابان جانبا وهما ينظران اليـــه فى حذر . أما هو فوقف منتصب القـــامة ناظرا فيما أمامه نظرة مجردة بعيدة المرمى وهو يحرك قدميه (محلك سر) طيلة الوقت) .

الأحمر : أرأيت ؟

الأبيض : نعم .

الأحمر : نذهب الى مكان آخر ؟

الأبيض : فلنلعب ان تكن لك رغبة فى اللعب حقا .

الأحمر : تحت عينيه ؟

الأبيض : ولم لا ؟

الأحمر : (ملاحظا الرجل) انه لا يكف عن الحركة رغم أنه لا يبرح مكانه .

الأبيض : المهم ألا يتدخل فى شئوننا •
الأحمر : ولكنه يتبعنا أينما سرنا •
الأبيض : لا يعد ذلك تدخلا فى شئوننا •
(صمت)
الأبيض : فلنلعب « وطى البصلة » •
الأحمر : (يهز منكبيه استهانة) فليكن ، « وطى » •
الأبيض : وطى أنت أولا •
الأحمر : بل أنت الأول •
الأبيض : لا تكن أنانيا •
الأحمر : لا هم لك الا المعارضة •
الأبيض : وأنت تتصرف كأن لا وجود لأحد معك •
الأحمر : لاعبنى « برادى فير » والمغلوب يوطى •

(الأحمر ينطرح على بطنه ويركز ذراعه على كوعه ناظرا الى الأبيض فى تحد فيضطر هذا الى أن يفعل مثله ، يتصارعان ، الأحمر يميل ذراع الأبيض حتى يلصقها بالأرض ••) •

الأحمر : (صائحا بفرح) غلبت ••• لم يوجد بعد الذى يستطيع أن يغلبنى (تلوح منه نظرة نحو الرجل القوى المتحرك فيبوخ حماسه نوعا) لم يوجد بعد •• (الأبيض ينهض مستسلما ، يوطى واضعا يديه على ركبتيه • الأحمر يتراجع مسافة ثم يجرى

نحو الآخر ويثب من فوقه معتمـدا بيـديه على ظهره المنحنى ، ثم يوطي بدوره فيثب الأبيض من فوقه ، هكذا تستمر اللعبة حتي يتعثر الأبيض وهو يثب فيرتطم بالآخر ويقعان معا ، ويغرقان في الضحك • يقفان وهما يضحكان • ويكف الأبيض عن الضحك ويواصله الأحمر • الأبيض يشير الى صاحبه بالسكون وهو يرهف السمع ، ثم يتراجع به بعيدا عن الرجل) •

الأبيض : يخيل الى أنه طالبنا بالكف عن اللعب •

الأحمر : لم أسمع شيئا •

الأبيض : ولكنى سمعته •

الأحمر : سمعى أقوى من سمعك •

الأبيض : ولكنك كنت تضحك •

الأحمر : (غاضبا) أرى أن نوقفه عند حده ••

الأبيض : يحسن بنا أن نتجاهله ••

الأحمر : بأى حق يتدخل فى خريتنا ؟

(صمت)

الأحمر : وكلما سكتنا زاد فى غيه •

الأبيض : تذكر أنه كان صديقا لوالدنا !

الأحمر : لا نستطيع أن نحكم ، كنا وقتها صغارا •

الأبيض : ولكنـــه لم يكف عن زيارته حتى آخر يوم فى حياته ••

الأحمر : لعله كان يتدخل فى شئونه كما يريد أن يفعل معنا ؟

الأبيض : لا يبدو أنه شرير ••

الأحمر : ولكن غير بعيد أن يكون به لطف !!

الأبيض : لعل متابعته لنا حيثما نذهب نوع من الرعاية بحكم صلته القديمة بوالدنا ؟

الأحمر : أنت عبيط ، ولعله كان ضمن الأشياء التى نغصت صفو أبينا فى أواخر أيامه ••

الأبيض : ولكن والدنا لم يذكره بسوء •

الأحمر : كنا صغارا لا نفقه لما يقال معنى ••

الأبيض : لم يكن لوالدنا أعداء •

الأحمر : من أدرانا بحقائق ذلك الزمن ؟

(صمت)

الأحمر : لماذا يطاردنا ؟

الأبيض : ان صح أنه يطاردنا حقا فلماذا يطاردنا ؟

الأحمر : انظر الى حركته المستمرة ، انه مجنون ••

الأبيض : لا تتسرع فى الحكم ••

الأحمر : هل يقبل عاقل أن يقف كما يقف ويحرك ساقيه كما يحركهما ؟

الأبيض : بعض الناس لا يطيقون السكون ••

الأحمر : ترى ما مهنته ؟

الأبيض : انه قوى ، خالى البال ، فلعله من الأعيان .

الأحمر : دعنا نناقشه جهارا .

الأبيض : كلا ، مظهره لا يشجع على المناقشة ..

الأحمر : دعنى أسأله بضعة أسئلة ..

الأبيض : مثل ماذا ؟

الأحمر : لماذا يطاردنا ؟

الأبيض : لن يعترف بذلك ، ولا دليل عليه ..

الأحمر : ألم تسمعه وهو يطالبنا بالكف عن اللعب ..

الأبيض : حتى ذلك غير مؤكد .

(صمت)

الأبيض : خير ما نفعل أن نتجاهله ..

الأحمر : لا أستطيع ..

الأبيض : لولا عصبيتك ..

الأحمر : (مقاطعا) دائما ترمينى بعجزك ..

الأبيض : لا حد لمكابرتك ..

الأحمر : أحيانا أود أن أدق عنقك .

الأبيض : سأضيق بك يوما فأهجرك ..

(يتواجهان فى غضب . الرجل يضرب الهواء بسوطه فيحدث طرقعة شديدة .. يدب الخوف فى قلبيهما . ينسيان خلافهما الطارىء . يغادران

المكان • الرجل يقف وقفته وهو يحرك ساقيه (محلك سر) •• المكان يظلم ••)

***

— ٢ —

(يضاء المسرح • نفس المسرح الخالى • يقف الأحمر والأبيض متواجهين • لقد تغيرا تغيرا ملحوظا • ارتدى كل منهما جاكتة من لون القميص وحذاء جلديا وأصبح لكل شارب صغير يتبادلان النظر فى ارتياح) •

الأحمر : هيهات أن يتعرف علينا الآن
الأبيض : تغيرنا لدرجة لا بأس بها •
الأحمر : ولكنها كافية لتضليله ••
الأبيض : هذا هو المأمول •
الأحمر : لا تبدو واثقا ولا مطمئنا •
الأبيض : يخيل الى أحيانا أن التغير بسطحى !
الأحمر : أنت مولع دائما بالتهوين من مهارتى ••
الأبيض : أبدا ، استعدادى طيب للاعتراف بمواهبك ••
الأحمر : اذن فلماذا تبدو مرتابا ؟

الأبيض : أخشى ألا يخدعه مظهرنا الجديد .

الأحمر : لن يصل الى حقيقتنا الكامنة وراء الشارب والجاكتة والحذاء .

الأبيض : عظيم ، هذا هو المأمول ..

الأحمر : نحن الآن موظفان من قوة الدولة !

الأبيض : هذا صحيح و ...

(يصمت فجأة متصنتا . الآخر يتصنت أيضا) .

الأبيض : وقع أقدام .

الأحمر : لا أظن .

الأبيض : انه قادم ..

الأحمر : لعله عابر سبيل مجهول .

الأبيض : بت أعرف ايقاع قدميه ..

الأحمر : لا تدع امتلاك الحكمة كلها .

(يصبح وقع الأقدام مسموعا . يدخل الرجل بنفس الصورة التى ظهر بها أول مرة ، ولكنه لا يقف وانما يمضى ذهابا وجيئة فى بطء ملحوظ بعرض المسرح وفى عمقه . الشابان ينظران نحــوه بذهول . ينتحيان جانبا بعيدا عن مسمعه) .

الأبيض : أرأيت ؟

الأحمر : مهلا .. أرجح أنه لم يتعرف علينا .

الأبيض : أتؤمن بذلك حقا ؟ !

الأحمر : لعل الذى يجمعنا هو الطريق والمصادفة ولا شىء سواهما ..

الأبيض : لا بأس من أن نسلم بذلك ..

الأحمر : فلنتجاهله ولنمارس عملنا فى هدوء وسكينة ..

(يرجعان الى وسط المسرح ، يتظاهران بالانهماك) .

الأحمر : (بنبرة عظمة) حررت استمارات الصرف ؟

الأبيض : لم تبق الا واحدة .

الأحمر : أسرع من فضلك لنتم مراجعتها اليوم .

الأبيض : على أى حال فالخزانة لا تغلق قبل منتصف النهار .

الأحمر : لا يجوز تأجيل عمل اليوم الى غد .

الأبيض : ألا ترى أنه يجب مراجعة ميزانية المصروفات ؟

الأحمر : أعلم أنها تسمح بالصرف حتى نهاية العام المالى ..

الأبيض : اذن يحسن أن أكتب المذكرة .

(صمت)

الأحمر : هل لك علاوة هذا العام ؟

الأبيض : كلا وأنت ؟

الأحمر : أستحق علاوة هذا العام .

الأبيض : مبارك .

الأحمر : ستغرق فى خضم أعباء المعيشة .

(الأبيض يتصنت فجأة وهو يمد أذنه نحو الرجل

المتحـــرك ، ثم يأخذ الآخر من يده بعيــدا عن مسمعه) •

لأبيض : أسمعت ؟

الأحمر : كلا •

الأبيض : عاد يطالبنا بالكف عن اللعب ••

الأحمر : متأكد ؟ !

الأبيض : بلا أدنى شك •

الأحمر : اللعنة ••

الأبيض : ليس من السهل خداعه •

الأحمر : ماذا يريد منا ؟

الأبيض : الله أعلم •

الأحمر : واضح أننا لا نلعب •

الأبيض : واضح جدا •

الأحمر : أيظن أنه ولى أمرنا ؟

(الأحمر يغضب • يأخذ الأبيض من يده ويذهبان الى وسط المسرح • الأحمر ينظر نحـــو الرجل المتحرك متحديا) •

الأحمر : هل تخاطبنا يا حضرة ؟

(الرجل يواصل حركته صامتا) •

الأحمر : يجب أن تتكلم ••

(الرجل يواصل حركته صامتا) •

الأحمر : نحن موظفان محترمان ، ولا نقبل إلا المعاملة اللائقة بكرامة الدولة ..

(الرجل يواصل حركته صامتا)

الأبيض : هل لك حاجة فى المصلحة ؟

الأحمر : عليه أولا أن يجيب ..

الأبيض : هل لك طلب ؟ .. شكوى ؟ .. أموال متأخرة ؟

(الرجل يواصل حركته صامتا) .

الأحمر : كيف دخلت الادارة ؟ .. أمعك بطاقة شخصية ؟

الأبيض : نحن فى خدمة الجمهور ..

الأحمر : (ثائرا) كف عن حركتك اللعينة فقد أدرت رءوسنا !

الأبيض : وتذكر أن الخزانة تغلق فى تمام الثانية عشرة .

الأحمر : لو رآك المدير وهو ذاهب الى دورة المياه فلن تحمد العواقب ..

الأبيض : ما زلت أقول اننا فى خدمة الجمهور .

الأحمر : يا ويلك من رجال أمن الوزارة لو رأوك !

الأبيض : ماذا جاء بك يا سيدى ؟

الأحمر : طبعا عندك فكرة عن العقوبة التى ينالها من يعتدى على موظف فى أثناء قيامه بأعمال وظيفته ؟

الأبيض : هل تضايقك بعض الشكليات السخيفة ؟

الأحمر : أنت أدرى بما يضايقك ، ومن حقك أن تشكو ، ولكن لكل اجراء نظمه المتبعة الواجبة الاحترام .

الأبيض : وحتى اذا احتاج الأمر الى رعاية خاصة أو وساطة لها وزنها فستجد عندنا ما يحقق رغباتك المشروعة •

الأحمر : عليك أولا أن تكف عن الحركة وأن تتفاهم كما يجدر بالناس الطيبين •

(الرجل يواصل حركته وفجأة يضرب الهواء بسوطه فيحدث فرقعة شـــديدة •• يتراجع الشـــابان فى خوف) •

الأحمر : (بلهوجة) أذن موعد الانصراف •

الأبيض : هيا بنا الى معركة المواصلات •

(يغادران المكان بسرعة ، وفى خوف لم يفلحا فى أخفائه .. يستمر الرجل فى حركته . يظلم المسرح) .

(يضاء المسرح • الأحمر والأبيض متواجهان بنفس الحال التى رأيناهما عليها ، عدا الشارب الذى امتد ونما فأضفى عليهما مظهر رجوله لم تجاوز حدود الشباب) •

الأحمر : أليست فكرة بارعة ؟

الأبيض : وطبيعية ، وتهيىء لنا استقرارا •

الأحمر : الزواج هناء ، ومصاهرة تقوى مركزنا وسواعدنا ، وفى اطار الصورة الجديدة لن يتعرف علينا •

الأبيض : هو خير من العزوبة على أى حال •
الأحمر : (فى عصبية) لا أراك متحمسا •
الأبيض : بل انى مرحب جدا بالفكرة •
الأحمر : لا أرى أثرا للحماس فى وجهك •
الأبيض : الزواج فكرة طيبة ولكن هل يغيرنا للدرجة التى تضلله عنا ؟
الأحمر : أعتقد ذلك •
الأبيض : فلنجرب والله معنا •
الأحمر : اظن يكفينا زوجة واحدة ؟
الأبيض : فكرة مبتكرة •
الأحمر : واقتصادية ، ولكننى أخشى قيام نزاع يهدد كل شىء •
الأبيض : (باسما) طالما واجهنا الحياة كشخص واحد •
الأحمر : كثيرا ما نختلف ونتخاصم •
الأبيض : ولكن شيئا لم يستطع أن يقضى على الرابطة التى تجمعنا •

(صمت)

الأحمر : وقع اختيارى على زوجة ممتازة ولكن هل تتفق أذواقنا ؟
الأبيض : بيننا تقارب لا شك فيه ولا تنس تسامحى •

(صمت)

الأحمر : انى أحب اللون الخمرى •
الأبيض : اللون الأبيض لا يعلى عليه •
الأحمر : بدأ الخلاف •
الأبيض : (بسرعة) ومع ذلك فجميع الألوان واحدة •
الأحمر : وأحب العود الممتلىء •
الأبيض : نحن فى عصر الرشاقة •
الأحمر : لا أتصور ذلك أبدا •
الأبيض : ليكن •• ليكن •• بشرط ألا يزيد وزنها بعد المعاشرة •
الأحمر : بل لا بأس من أن يزيد وأن تمتلىء المواقع التى يريد الله لها أن تمتلى •
الأبيض : (متنهدا) لتكن ارادة الله •
الأحمر : ورأيت من الحكمة أن تكون ذات مال ولو فى الحدود المعقولة •
الأبيض : يا له من تفكير تجارى !
الأحمر : أنت جاهل بالدور الذى يلعبه المال فى الحضارة !
الأبيض : ليكن ما تريد ، لا تغضب •
الأحمر : ولا أقبل بحال أن تكون كاملة التعليم ، حسبها التعليم الابتدائى ، فالعلم زينة غير مقبولة للمرأة وهو يغريها دائما بالعمل الذى يحولها فى النهاية الى رجل •

الأبيض : رأيك هذا كان رأيا عصريا فى العصر الحجرى •

الأحمر : أنا لا يخيفنى التعبير بالعصور القديمة •

الأبيض : ما دمنا نرغب فى أن نكون ثلاثة فأكثر ، وما دام ذلك فى صالحنا وضمانا لأمننا المهدد ، فلا يعنى الا القبول •

الأحمر : وطالبت بأن تكون لعوبا فى نطاق الشرع !

الأبيض : المرأة اللعوب لا يسعها الا أن تكون لعوبا سواء فى نطاق الشرع أو خارجه •

الأحمر : بل فى نطاق الشرع وحده وسوف ترى •

الأبيض : فلنجرب على أى حال •

(صمت)

الأحمر : هل لك مواصفات أخرى ؟

الأبيض : مواصفات هامشية ولكنها لا تخلو من فائدة ، مثل البراعة فى الحديث •

الأحمر : لا أهمية لذلك ، أنا أعرف زوجا سعيدا ، ترجع سعادته أولا الى كون زوجته خرساء •

الأبيض : ويا حبذا لو كانت تجيد الغناء !

الأحمر : لا أهمية لذلك أيضا فلدينا الكفاية فى الاذاعة والتلفزيون •

(صمت)

الأحمر : هل من مواصفات أخرى ؟

الأبيض : كلا •
الأحمر : أعتبر اتفاقنا كاملا ؟
الأبيض : كاملا ••

(الأحمر ينظر الى الجانب الأيمن من المسرح ويزغرد • تسمع موسيقى زفة العروس •
تدخل العروس وهى تسير بين شيخ وشرطى •
يقفون أمام الشابين ثم يستدير الرجلان ويذهبان • تتبادل النظرات بين العروس وبين الشابين) •

الأحمر : أهلا بك يا عروس •
العروس : (فى حياء) أهلا بك •
الأبيض : فلتحل بحلولك النعمة والهناء •
العروس : آمين •

(يقبلانها فى وقت واحد ، كل فى خد) •

العروس : (بحيرة) توقعت قبلة واحدة !
الأبيض : سيتكرر ذلك كثيرا •
الأحمر : وعلى كل موقع مختار !

(ذهول من العروس وضحك من الشابين) •

الزوجة : (فى حيرة أكثر) انى أتزوج لأول مرة فمعذرة
الأحمر والأبيض معا : ونحن كذلك !
الزوجة : نحن ؟ !

الأبيض : نعم •
الأحمر : لسنا من أنصار تعدد الزوجات •
العروس : ولكن •
الأحمر : أنت الزوجة ونحن الزوج •
العروس : منا ؟
الأحمر : نعم •
العروس : ولكنكما اثنان •
الأبيض : اعتبرينا شخصاً واحداً •
العروس : لا أفهم شيئا •
الأحمر : ثمة أمور لا تفهم الا بعد ممارسة الحياة الزوجية بالفعل •
العروس : لم يكن ذلك ضمن المعلومات التى زودتنى بها أمى •
الأحمر : طيبة منها ولا شك •
العروس : وكيف تستقيم المعيشة معكما معا ؟
الأحمر : ستعلمين ذلك فى حينه •
العروس : أليست حالا غير طبيعية ؟
الأحمر : هذا ما جرت به الطبيعة منذ الأزل •
العروس : قيل لى ان التوفيق مع زوج واحد أمر ليس بالهين فكيف يتيسر مع اثنين ؟
الأبيض : هو غير هين لذلك وليس لسبب آخر •

الأحمر : ستتعلمين كل شيء فى حينه .. ، تعالى .
(ينهالان عليها قبلا وأحضانا وهى مرتبكة) .
العروس : ستوجد مشاكل ؟
الأحمر : مشاكل ؟
العروس : (فى حياء) من سيكون أبا الوليد ؟
الأبيض : سيحمل اسم من يسجله فى المكتب المدنى .
العروس : ولكن ذلك شيء عرضى جدا .
الأبيض : الأسماء كلها عرضية .
العروس : أعجب ما سمعت فى حياتى .
الأحمر : هكذا سيبدو لك كل شيء .
العروس : لم أسمع بذلك من قبل .
الأحمر : ولذلك فانى من أنصار تعليم الجنس فى المدارس !
(صمت)
(يترامى وقع أقدام . يخرجون بعنف منجو الموقف ويرهفون السمع) .
الأحمر : غير معقول .
الأبيض : (متنهدا) لم أكن مغاليا .
العروس : من القادم ؟
الأحمر : (للأبيض) : ولكن .. هيهات أن يعرفنا !
الأبيض : فليحقق الله ظنك .
العروس : أتتوقعان قدوم أحد ؟

الأحمر : كلا .
العروس : فمن القادم ؟
(صمت مع ارهاف السمع)
(يدخل الرجل بصـــورته الثابتة ، ويمضى ذهابا وايابا في حركة أسرع قليلا مما كانت عليه فى المنظر السابق .
الأحمر والأبيض والعروس يتراجعون بعيدا عن مسمعه) .
الأحمر : قلبى يحدثنى بأنه لم يعرفنا .
الأبيض : طالما منينا أنفسنا بذلك .
العروس : (بضيق واضح) ماذا جاء به الى هنا ؟
الأحمر : (للعروس) أرأيته من قبل ؟ !
العروس : أكثر من مرة !
الأحمر : أنت أيضا ؟ !
العروس : وأنتما ؟ .. أليس كذلك ؟ !
الأبيض : لعله من سكان الحي !
الأحمر : أكاد أوقن بجنونه .
العروس : كان من المترددين على أبى .
الأحمر : أيضا !
العروس : ظننته سينقطع عن الظهور عندما أصير فى عصمة رجل ولكنه مصر رغم أننى صرت فى عصمة رجلين !

الأحمر : لا داعى للتشاؤم فلعله لم يعرفنا •
الأبيض : لعله !
العروس : رباه •• ما أشد قلقى •• ماذا يجدر بنا أن نفعل ؟
(صمت)
الأحمر : فلنتجاهله •• ولنغن احتفالا بحياتنا الزوجية •
(يرجع الأحمر بهما الى موقفهما السابق وسط المسرح ثم يغنون) :
بشرى لنـــا نلنـــا المنى
زال العنـــا وافى الهنا
(الأبيض يرهف السمع باهتمام واضح) •
الأبيض : (للأحمر) عاد يتكلم •
الأحمر : (منفعلا) ماذا قال ؟
الأبيض : كالعادة •
الأحمر : (مخاطبا الرجل) ماذا تريد ؟
الأبيض : (للرجل) سيدى •• لم تضيع وقتك هدرا ؟ !
الأحمر : (للرجل وحدته ترتفع) هل تغرك قوتك ؟ ، هل تستند الى أحد من ذوى الشأن ؟ ، اذن فاعلم أننا أصهرنا الى واحد منهم هو والد هـــذه الزوجة الكريمة ، وقد أصبحنا ثلاثة تؤيدهم حلقة متينة من العائلات الأصيلة •
الأبيض : (للرجل) أخى شاب ذو حدة ، ولكننا فى النهاية

من صلب الرجل الطيب الذى كان صديقا لك .

الأحمر : (مستسلما للحدة) : لم أعد أطيق هذا التدخل السخيف !

العروس : ولا أنا .

الأبيض : (للرجل) ماذا تريد يا سيدى ؟ ، كأنه لا يروق لك شىء مما نفعله ، فماذا تريدنا على أن نفعل ؟

الأحمر : (للرجل) تكلم .. يجب أن تتكلم .

العروس : (للرجل أيضا) احترم الحياة الزوجية المقدسة .

الأبيض : نحن ندعوك لحفل زفافنا ، ما رأيك ؟

(صمت)

الأحمر : (موجها خطابه للزوجة والأبيض) لا فائدة !

العروس : يا للأسف !

الأبيض : (وهو يتنهد بصوت مسموع) أصبح لنا أسرة على أى حال !

(الرجل وهو يواصل حركته ذهابا وايابا يضرب بسوطه الهواء فتسمع طرقعة شديدة .. يتراجعون بعيداً عنه فى ذعر واضح) .

العروس : لا أطيق ذلك .

الأحمر : ولا أنا .

الأبيض : لنبدأ رحلة شهر العسل !

الأحمر : لنبدأها فورا .

العروس : هيا .. هيا .

الأحمر : سيسقط يوما من الاعياء جثة هامدة .

العروس : آمين .

(يتأبط كل منهما ذراعا لها ويغادران المكان وهم يسترقون النظر اليه فى حذر . يواصل الرجل حركته على حين يظلم المسرح) .

— ٤ —

(يضاء المسرح . الأبيض والأحمر بنفس الملابس ومعهما الزوجة . واضح أن العمر قد تقدم بهم فجرى المشيب فى رءوسهم وذبلت نضارتهم ، أصبحوا كهلين وسيدة) .

الزوجة : مهما يكن من متاعبكم فلا يجوز أن ننسى الأبناء !

(الرجلان يتبادلان نظرات عميقة وكأنهما لم يسمعا صوت الزوجة) .

الأحمر : اذا طارت درجة المدير العام هذه المرة فقل عليها السلام .

الأبيض : ما زالت اجتماعات اللجنة مستمرة !

الأحمر : ككل مرة ، ثم يرقى شخص مجهول لا يخطر ببال أحـــد .

الأبيض : هل تطيق الصحة أعباء جديدة يا عزيزى ؟.

الأحمر : لا شىء يهمك حتى الأعماق ، أبدا ، هل فكرت فى تحسين المعاش كما ينبغى لرجل مسئول ؟ !

الزوجة : المعاش فى النهاية أهم من المرتب نفسه !

الأحمر : كررى ذلك على مسامعه !

الأبيض : انى أود الترقية أيضا ولكنى أكره حرق الدم .

الأحمر : سرعان ما تضيق بأى شىء .

الأبيض : فليهتم بالمعاش من لن يملكوا سواه ، أما أنت فان نشاطك الحر أضعاف نشاطك الرسمى .

الأحمر : لولا ذلك ما توافرت لنا الحياة التى ننعم بها .

الأبيض : غرقنا فى العمل طيلة عمر ، للدولة ولأنفسنا ، بت أتطلع لحياة أخرى ، لشىء من الهدوء والراحة .

الأحمر : عما قريب ستتشبع من الهدوء والراحة وتبكى الأيام الخالية .

الأبيض : لا أظن .

الزوجة : كفا عن النزاع ، ولندع الله أن يهبنا القوة والصحة ، ولكن فكرا قليلا فى الأبناء .

الأحمر : (للأبيض) أنت مثبط للهمم .

الأبيض : كلا ، لى طموح بعيد أيضا .

الأحمر : لا أعترف به .

الأبيض : تلزمنا فترة تأمل عقب الجنون المحتدم .

الأحمر : من أين لنا بها ؟ ، ثلاثة اجتماعات فى اليوم ، ورابع فى المساء مع سمسار من السوق الحرة ، وعلينا بعد ذلك أن نقيم وليمة عشاء للعملاء ..

الزوجة : ستكون وليمة يشهد لها العدو قبل الصديق ..

الأبيض : (للأحمر) ولكن ألا ترى أن وظيفة المدير العام ستلتهم وقتنا الضيق ؟

الأحمر : كلا ، فهى من ناحية أخرى تذلل كثيرا من الصعاب ..

الأبيض : لا تنس أمراضك المزمنة .

الأحمر : انى مسيطر عليها تماما ..

الزوجة : نسأل الله السلامة ..

الأحمر : (للزوجة) لن أنسى أفضالك فأنت ممرضة ماهرة !

الأبيض : هى نفسها لا تخلو من أمراض مزمنة ..

الأحمر : هذا يدعونا الى مضاعفة النشاط .

الزوجة : والأبناء ؟

الأحمر : (فى ضيق) الأبناء .. الأبناء .. لا حكاية لك الا الأبناء ، وحكاياتهم لا تسر الخاطر ..

الزوجة : ولكنها جديرة بكل اهتمام وعناية ..

الأحمر : اللعنة .. انهم أعقد من درجة المدير العام .

الزوجة : (للأبيض) قل شيئا ••
الأبيض : فى ذلك المجال فانى أفعل أكثر مما أتكلم ••
الزوجة : (متأوهة) حسادنا كثيرون على حين أننا تعساء ••
الأحمر : (غاضبا) كفى عن الولولة !
الزوجة : (غاضبة أيضا) أنت رجل أنانى ••

(يخرصهم السكوت فجأة فيرهفون السمع فى قلق واضح) •

الأحمر : كلا •• لا شىء ••
الزوجة : ماذا هناك ؟
الأحمر : خيل الى ••
الزوجة : يا رحمن يا رحيم ••
الأبيض : ليست المرة الأولى •
الأحمر : ماذا تعنى ؟
الأبيض : سمعنا الأقدام مرات ولكن الرجل لم يظهر ، منذ مدة لم يظهر •
الأحمر : بل كدنا ننساه تماما •
الزوجة : ليس تماما •
الأبيض : ولكنه كثيرا ما يسمعنا وقع أقدامه ••
الأحمر : مجرد ظنون •
الزوجة : لعله مات ••
الأبيض : مات ؟ !

الزوجة : والا ما اختفى طيلة تلك المدة ..

الأبيض : لكنه لم يختنف تماما ..

الأحمر : أقسم أننى كدت أنساه ..

(وقع الأقدام يسمع بوضوح . ينصتون بقلق واضح ..) .

الأحمر : ليتنا ما ذكرناه ..

الزوجة : ليتنا ..

الأبيض : ولكن لا حيلة لنا فى ذلك ..

الأحمر : لا تنقصنا الهموم ..

الزوجة : وكل الهموم تهون بالقياس لهمه ..

الأبيض : ونحن نخلق من الهموم ما يكفى ..

الأحمر : (للأبيض فى غيظ وحنق) يخيل الى أحيانا أنك حليفه علينا !

الأبيض : ليتك تزداد مع العمر حكمة ..

الأحمر : الاعجاز أن نزداد مع العمر حماقة !

الأبيض : أشهد أن ذلك الاعجاز لا ينقصنا !

الأحمر : ما زلنا شبابا .

الأبيض : ظننت أن الشباب قد ولى ..

الأحمر : (مشيرا الى قلبه) الشباب هنا وليس فى مكان آخر .

الزوجة : ما زلنا شبابا !

الأبيض : اذن فعليكم ألا تهتموا بمطاردة الرجل لنا .

الأحمر : ولكننى لا أرتاح اليه •

الزوجة : وأما أنا فانى أمقته •• ، ويخيل الى أنه سيقتلنا يوما ما •

الأبيض : نحن نقتل أنفسنا أيضا ••

الأحمر : لقد حققنا أعمالا مجيدة •

الزوجة : أعمال غير قابلة للموت ••

الأبيض : لا يجوز أن نخشى الموت أكثر مما ينبغى •

الأحمر : كلام فارغ ، أنت أول من يخاف الموت •

الزوجة : كيف لا نخشى الموت ؟ !

الأبيض : لا يبعد أن يكون آخر مغامرة فى الحياة ••

الأحمر : لا تتعلق بالأوهام ••

(وقع الأقدام يشتد • يدخل الرجل • منظره لم يتغير • يمضى فى حركته ذهابا وايابا بسرعة أكبر مما كانت عليه فى المنظر السابق • يتابعونه بذهول • يتراجعون بعيدا عن مسمعه) •

الأحمر : قلبى يحدثنى بأنه لم يعرفنا •

الأبيض : لا تتعلق بالأوهام !

الزوجة : انه يزداد سرعة !

الأحمر : ذلك يعنى أنه يزداد جنونا •

الأبيض : ترى ما معنى ذلك ؟

الأحمر : لا تحمل الأمور أكثر مما تعنى ••

الزوجة : (فى عصبية) ما له يسرع هكذا !
الأحمر : علينا أن نفزعه ..
الزوجة : كيف ؟
الأحمر : (غامزا بعينه) فلنمثل دورنا باتقان ..
(يرجع بهما الى المكان الأول وهو يتظاهر بالثقة والعظمة ..) .
الأحمر : (للأبيض) هل أضفت الأموال الى حسابنا الجارى ؟
الأبيض : نعم .
الأحمر : عظيم .. لا يجوز أن نترك مليما بلا استثمار .
الزوجة : عين الصواب .
الأحمر : سأقابل غدا بعض كبار المسئولين ..
الزوجة : لعلهم ضمن المدعوين الى مأدبة العشاء ؟
الأحمر : كلا ، ستكون الوليمة قاصرة على الوزراء !
الزوجة : ولا تنس السفراء يا عزيزى .
الأحمر : ذلك ما لا يمكن نسيانه .
الزوجة : سيتم كل شىء على خير وجه قبل أن تسافر الى الخارج .
الأحمر : (وهو يضحك عاليا) طبعا .. طبعا ..
(الأبيض يرهف السمع باهتمام وقلق ، يتجه نحو الأحمر) .
الأبيض : تكلم مرة أخرى كالعادة !

الأحمر : أنت وحدك تسمع رغم أنك أضعفنا سمعا !

الأبيض : عليك أن تصدقنى ..

الأحمر : (للرجل وهو يتقد غضبا) ماذا تريد ؟

الزوجة : (للرجل) ماذا جاء بك الى بيتنا ؟

الأحمر : («) نحن نطالبك بالأدب واللياقة .

الأبيض : («) لم يعد يمكن أن يقال اننا نبدد وقتنا فى اللعب !

الأحمر : (للرجل) وماذا يهمك من سلوكنا ؟

الزوجة : («) ألا تخاف على أعصابك وأنت تجرى بهذه السرعة ؟

الأحمر : (للرجل) يوجد قانون وتقاليد .

الزوجة : («) صن صحتك من أجل خاطر أولادك ، أليس لك أبناء ؟

الأبيض : (للرجل) ليتك تصارحنا بما تريد .

الأحمر : («) انى أحذرك عواقب الاستهتار .

الأبيض : («) المصارحة مفيدة للطرفين .

الأحمر : (للأبيض) لا تلاينه فانه لا يزداد بالملاينة الا عتوا .

الزوجة : (للأحمر متوسلة) دعه يجرب !

(يتراجع الأحمر والزوجة تاركين الأبيض يجرب حظه ..) .

الأبيض : علاقتك القديمة بوالدنا لا يمكن أن تنسى ..
(الرجل يواصل حركته وكأنه لا يسمع شيئا) .

الأبيض : انك لا تدرى مدى الازعاج الذى تسببه لنا بحسن نيـــة .
(الرجل يواصل حركته وكأنه ... الخ) .

الأبيض : أأنت مكلف بمهمة ؟ ، ما هى ؟ ، من كلفك بها ؟ .. صارحنا وأعدك بالمساعدة !
(الرجل يواصل .. الخ) .

الأبيض : لا تسىء بنا الظن ، لنا أخطاء بلا شك ، ولكن أعمالنا لا تخلو من قيمة .. ، وخيرنا أكثر من شرنا ..
(الرجل يواصل .. الخ) .

الأبيض : صارحنا بما فى نفسك والا فمن العدل أن تتركنا وشأننا ..
(صمت مع استمرار الرجل فى حركته) .

الزوجة : (لنفسها) الكلام الطيب لا يؤثر فيه .

الزوجة : (للرجل بصوت مرتفع منفعل) هذه أرضنا ، لنا فيها أبناء وأموال وأعمال ، فليس من الانصاف أن تزعجنا على هذا النحو ..

الأحمر : (بنبرة تهديد) لا فائدة ، ولا مفر من اللجوء الى المسئولين ..

(الرجل مستمر فى حركته على حين ينضم الأحمر والزوجة الى الأبيض) .

الأحمر : (بنفس النبرة المهددة) قوى شر كثيرة تعترض مجرى الحياة ، مستهترة بالقوانين والتقاليد ، ولكن كيف تكون عاقبتها ولو على المدى البعيد ؟ ، تغلب على أمرها ، ويحق عليها الجزاء والقهر ، هذه هى سنة الحياة والا حق عليها الفناء ..

(الرجل وهو مستمر يضرب الهواء بسوطه فيحدث طرقعة رهيبة فينكمش الثلاثة ، ثم يرون من الأوفق أن يغادروا المكان فيغادروه متعثرين . الرجل مستمر والظلام يهبط ..) .

— ٥ —

(يضاء المسرح . الأحمر والأبيض والزوجة وقد طعنوا فى السن وركبتهم الشيخوخة . الأحمر يرتدى عباءة حمراء وطاقية حمراء ، والأبيض عباءة بيضاء وطاقية بيضاء ، أما الزوجة فترتدى روبا يجمع بين اللونين . يتحركون حركات تنم عن الضعف والشيخوخة) .

الأحمر : آه .

الأبيض : آه •

الزوجة : آه •

(صمت)

الزوجة : الحمد لله على أى حال •

الأبيض : له الحمد والشكر •

الأحمر : اللهم احفظنا •

(صمت)

الأبيض : (مرهفا السمع) هل تسمعان وقع أقدام ؟

الأحمر : ثقل السمع !

الزوجة : انى أسمعها عن غير طريق الأذن !

(صمت)

الزوجة : أتذكران عندما كنا أطفالا ؟

الأحمر : ولكننا عرفناك بعد مرحلة الطفولة !

الأبيض : (فى حنان) عندما كنا أطفالا !

الزوجة : (متنهدة) عندما كنا أطفالا !

(صمت)

الزوجة : كأنه الأمس •

الأبيض : كأنه الأمس •

الأحمر : كأنه •• كأنه •• كأنه •• عليكم اللعنة !

(صمت)

الزوجة : الأيام الحلوة •

الأبيض : والأحلام الحلوة •
الأحمر : كنا نبول على أنفسنا وها نحن نبول على أنفسنا مرة أخرى !

(صمت)

الأبيض : (مرهفا السمع) هل ••
الأحمر : (مقاطعا) تسمعان وقع أقدام ؟
الزوجة : انها تدب بلا انقطاع •
الأبيض : أعتقد أننا ألفناها •
الأحمر : أعتقد أنك مزعج مثله •
الزوجة : لا داعى للخلاف الآن •

(صمت)

الأحمر : فاتتنا فرص عظيمة ولكننا قمنا بأعمال تستحق الذكر •
الزوجة : نحمده على ما نلنا ونستعيضه عما فاتنا •
الأبيض : نحمده •

(صمت)

الأحمر : ترى هل أخطأنا فى توظيف أموالنا ؟
الزوجة : العمارات أثبت من السوق المتقلبة !
الأبيض : سبحان من له الدوام •
الأحمر : وفكرة البيع الصورى للأبناء رائعة من ناحية الضرائب !

االأبيض : هى أروع فكرة قانونية للخروج عن القانون •

الأحمر : (غاضبا) أنت عنيد وأحمق •

الأبيض : دائما لا تعجبك الحقيقة •

الزوجة : لا تضاعف من مخاوفنا •

الأحمر . (ساخرا) الابن الوحيد الذى حمل اسمك ضاع ، اخوته رجال أعمال يفخر بهم الوطن أما هو فماذا يعمل ؟ •• ملحّن ، ملحِّن •• ها •• ها •

الأبيض : لا يقل عن اخوته شأنا ولا يتطلع مثلهم للهجرة الى الولايات المتحدة •

الأحمر : (وهو يضحك) ماذا يعمل بالله ؟

الأبيض : انه يلحن فيقول الناس آه •

الزوجة : (متأوهة) آه •

الأحمر : (متأوها) آه •

(صمت)

الزوجة : (معاتبة) كفا عن النزاع فلم تعودا صغيرين •

الأحمر : (فخورا) لولاى ما دامت لنا الحياة الزوجية •

الأبيض : (فى امتعاض) الحق أنه لولاى لانفصمت عروة الزوجية فى أعقاب شهر العسل !

الأحمر : (ساخرا) أي فضل لك في شهر العسل ؟ !

الزوجة : (مغطية وجهها) يا للفضيحة ! •• أخفضا صوتكما !

(صمت)

الأحمر : (متذكرا أوجاع الكبر) آه •

الزوجة : آه •

الأبيض : آه •

(صمت)

الأحمر : آن لى أن أذهب الى النادى •

الزوجة : يحسن بك ألا تخرج فى فصل الشتاء •

الأحمر : لا أريد أن يشمت بى أحد من الأعداء •

الأبيض : لا تبالغ فى تصور الأعداء •

الأحمر : الناس بطبعهم أعداء للرجل الناجح •

(وقع الأقدام يرتفع لدرجة لا تخفى على أحد • يرهفون السمع فى رهبة صامتين • يدخل الرجل بمنظره المألوف • يمضى ذهابا وايابا فى سرعة أكبر من المنظر السابق وهم يتابعونه بذهول) •

الزوجة : انه يكاد يجرى •

الأحمر : يزداد جنونه استفحالا •

الأبيض : لا يبدو عليه الكبر مثلنا •

الزوجة : ما فائدة أن نتساءل عما يجعله يتبعنا ! ؟

الأبيض : ولا تؤثر فيه وسائل دفاعنا •

الأحمر : مهما يكن من أمر فلا يجوز أن نطلعه على ضعفنا ٠

الأبيض : أتؤمن بجدوى ذلك ؟

الأحمر : بلا أدنى شك ، فلولا علمه بعملنا ونجاحنا وعلاقاتنا بذوى الشأن لقضى علينا من قديم !

(صمت)

الزوجة : أتوجد فائدة من مناقشته ؟

الأحمر : يقينا لا ٠

الأبيض : واضح أنه يتبعنا أينما نذهب ولكنه لا يتعرض لنا بسوء ٠

الأحمر : (فى غيظ) ألم يجعلنا طول العمر نتوقعه ونفكر فيه ونضيق به ونتوجس منه ؟

الأبيض : نحن الذين نفعل ذلك لا هو ٠

الأحمر : يا لك من مكابر ٠

الزوجة : كان وما زال هما ثقيلا على القلب ٠

الأحمر : كيف فاتتنا طيلة عمرنا أن نهاجمه ولو مرة ؟ !

الزوجة : حذار أن تفكر فى ذلك ٠

الأبيض : لم نعد أهلا للمعارك ٠

الأحمر : ولكننا كنا أهلا لها يوما ما !

الأبيض : شغلتنا المعارك الأخرى ٠

الأحمر : لا يخلو صوتك من تأنيب أبدا ٠

الأبيض : دائما ألام على قول الحق !

الأحمر : أنت عبء طالما حملته فوق عنقى •

الأبيض : علم الله أنك كنت العبء لا أنا وأننى تحملتك بصبر يفوق طاقة البشر •

الأحمر : يا لك من مكابر جاحد •

الأبيض : يا لك من جاهل •

الأحمر : لولاك ما جرؤ هـذا المجنـون على مطاردتنـا والاستهزاء بنا •

الأبيض : انه يستهزىء بك وحدك •

(الزوجة تفصل بينهما لتلطف الجو • يسـود الصمت • تتعلق الأبصار بالرجل المتحرك بسرعته المفزعة) •

الأحمر : عندى فكرة •

الأبيض : كل ما فعلناه كان من وحى فكرك ولكنه لم يجد •

الأحمر : أتستهين بما فعلنا ؟

الأبيض : كلا ، انه عظيم ، ورغم مخالفته للقانون أحيانا فهو عظيم ، ولكنه لم يرحنا من مطاردته •

الأحمر : لم لم نلجأ الى المسئولين عن الأمن ؟

الأبيض : لأننا كنا وما زلنا نخشاهم !

(يتبادلان نظرة تحد ولكن الزوجة تفصل بينهما مرة أخرى) •

الزوجة : لجأ كثـيرون الى رجال الأمن ولـكن ماذا كانت

النتيجة ؟ .. لا شيء ، وهو لا يرتكب جريمة يعاقب عليها القانون ، ولعله يعتمد على صلاته بأناس فى أقوى مواقع السلطة ، بل علمت أن كثيرين من رجال الأمن أنفسهم يعانون منه مثلنا .

الأحمر : لعله يطمع فى شيء مما نملك ؟

الأبيض : ولكنه يطاردنا مذ كنا لا نملك شيئا .

(الأحمر يضرب الأرض بقدمه مغيظا محنقا) .

(صمت)

الأبيض : (وكأنه يحدث نفسه) أهو يطاردنا حقا ؟ ، وان صح ذلك فلماذا يطاردنا ؟ ، وهل يعمل لحسابه أو لحساب شخص آخر ؟ .

(صمت)

الأبيض : (مسترسلا فى تفكيره) أضعنا وقتا طويلا دون أن نعنى عناية حقيقية بذلك .

الأحمر : (هازئا) لو عنينا بذلك عنايا حقيقية لما تبقى لنا وقت لتحقيق شيء ذى قيمة !

الأبيض : نحن الآن على المعاش وبلا عمل جدّى .

الأحمر : ولكننا طاعنون فى السن ، ومرضى ، ولا قدرة لنا على البحث !

(صمت)

الزوجة : (بغيظ) ترى ما الذى يجعله يحافظ على قوته رغم مرور الزمن ؟

الأحمر : (في سخرية) ربما لأنه لم يتزوج !

الزوجة : (غاضبة) يا لك من جاحد أنانى .

الأحمر : (للأبيض) لا داعى لطرح أسئلة والانشغال بها على حين أنها واضحة الجواب ، فهو يطـاردنا بلا ريب ، ويطاردنا ليقضى علينا ، ولا يهم بعد ذلك أن يكون عمله لحسابه أو لحساب شخص آخر .

الأبيض : ولكن يخيل الى أحيانا أنه بفضله حققنا ما حققنا من عمل .

الأحمر : ليس بفضله ولكن دفعا لمطاردته الملحة .

الأبيض : (بنبرة اعتراف) الحق أننى قمت سرا بتحريات كثيرة عنه .

الأحمر والزوجة (معا) : حقا ؟

الأبيض : بلا نتيجة تذكر .

(صمت)

الأبيض : حسـبته مندوبا لمصـلحة الضرائب أو مرشـدا للمخابرات أو موظف احصـاء ، أو من شرطة الآداب !

الأحمر : جميع أولئك ثقلاء ولكن ليس لهذا الحد .

الأبيض : وحتى فى تلك المراكز الهامة تبين لى أنهم لا يعرفونه أكثر منا ويعانون من مطاردته مثلنا .

الأحمر : ولم سكتوا عنه وهم يقضون على الآلاف بلا حساب ؟

الأبيض : بل ان محاولات قتله وفيرة ولكنها تبوء عادة بالفشل .

الزوجة : (فى عصبية) سرعته تدير رأسى !

(ينظرون اليه بحنق . يضرب الرجل الهواء بالسوط محدثا الطرقعة المخيفة . يتجمعون ويغادرون المكان ببطء حسبما تسمح به سنهم المتقدمة .

الرجل يستمر فى حركته على حين يهبط الظلام) .

- ٦ -

(يضاء المسرح . الأحمر والأبيض والزوجة ولكنهم تغيروا تغيرا مذهلا ، عادوا الى منظر الشباب وملابسه كما رأيناها سابقا . واضح أنهم صبغوا الشعور وشدوا الجلود وفعلوا المستحيل لاستعادة شبابهم الضائع . يتبادلون النظرات وهم يبتسمون فى ارتياح وسرور) .

الأحمر : آخر حيلة ولكنها تجوز على الجن الأحمر نفسه .
الزوجة : ما أحلى الرجوع الى الشباب .
الأبيض : ما أحلاه .
الأحمر : لن يعرفنا ولو دار حول الأرض .
الزوجة : استجب يا رحمن .
الأحمر : من اليسير أن يتابع أناسا وهم يكبرون ولكن كيف يخطر له أنه يمكن أن يرجعوا يوما الى الشباب ؟ !
الزوجة : قلبى يحدثنى بأننا نجونا من مخالبه .
الأحمر : وليعوضنا الله عما بذلنا من جهد ومال .
الزوجة : طبيب التجميل وما أخذ نظير تجديد جلد الوجه .
الأبيض : والصبغة العجيبة وارد الخارج .
الأحمر : والحقن ، لا تنسوا الحقن .
الزوجة : والهرمونات والحمامات الطبية والتدليك الفنى .
الأحمر : (فى حبور) حل لغز ما وراء الموت أقرب اليه من التعرف علينا .
الأبيض : هى على أى حال آخر ما فى الجراب من حيل .
(صمت)
الأحمر : وثمة مفاجأة جديدة تتم بها اللعبة وتحقق كمالها المنشود .
الأبيض : أكثر مما تحقق بالفعل ؟
الأحمر : نعم .

الأبيض : ترى ما هى ؟

الأحمر : عروس جديدة !

(الزوجة تصرخ غاضبة محتجة مهددة) •

الأحمر : لا تسيئى فهمى •

(الزوجة مستمرة فى صراخها الغاضب) •

الاحمر : اعلمى أننى أعمل من أجل سعادة الجميع !

الزوجة : غدر واجرام !

الأحمر : من أجل عذابك حيال مطاردته لنا اللعينة •

الزوجة : لا داعى مطلقا لهذه المفاجأة ، ما حققنـــاه كاف وأكثر •

الأحمر : انضمام العروس الى الصورة الجديدة يغيرها تغيرا مطلقا •

الزوجة : أنت تستطيع خداعه ولكنك لا تستطيع خداعى •

الأحمر : لا مجال للشهوات ولكننا ندافع عن حياتنا •

الزوجة : لا تحاول خداعى ، أنا أعرفك أكثر ما تعرف نفسك •

الأحمر : مضى زمان الحب ، وما شبابنا الراهن الا قناع ، هل تجدين رغبة فى الجنس ؟

الزوجة : (بتحد) نعم •

الأحمر : يا لك من عجوز مستهترة •

الزوجة : وعندك أضعاف ذلك •

الأحمر : لا تضيعى من أيدينا آخر فرصة لنا •

الزوجة : ان أردت عروسا جديدة فهاك أنا !

الأحمر : اتقى الله يا ولية وجربى قرعتك فى الحج هـذا العـام •

الزوجة : انى صالحة للحب كما أنى صالحة للحج •

الأحمر : ألم تزجرينى كثيرا مذكرة اياى بالأبناء والأحفاد ؟

الزوجة : لا تذكرنى بتلك الأيام اللعينة •

الأحمر : أؤكد لك أنك غير صالحة للحب •

الزوجة : جرب •• العبرة بالتجربة •

الأحمر : أنت مجنونة !

الزوجة : أنت غدار خائن •

الأحمر : (للأبيض) هل خرست ؟ •• أسعفنا برأيك •

الأبيض : أمهلنا وقتا للتفكير •

الزوجة : (للأبيض) حتى أنت تريد أن تفكر !

الأحمر : فات الوقت ، العروس الجديدة حقيقة مفـروغ منهـا •

(الزوجة تعاود الصراخ) •

الأبيض : كان يجب أن نتشاور !

الزوجة : لن يكون ذلك أبدا •

الأحمر : لا أسمح بكلمة أخرى •• والا اضـطررت الى الطلاق !

الزوجة : تطلقنى وأنا جدة ؟ •• حتى الوحوش تستنكف ذلك •

الأحمر : اذهبى الى أولادك قبل أن يعصف الغضب برأسى •

(الأبيض يتدخل لانقاذ الموقف • يأخذ الزوجة من يدها الى الخارج وهو يحادثها بصوت غير مسموع •• ثم يعود الأبيض وحده) •

الأبيض : يا لك من جرىء حقا •

الأحمر : أظهر سرورك الآن يا منافق !

الأبيض : لن تجد عروسا مناسبة أبدا ••

الأحمر : عروس فى السادسة عشرة مثل لهطة القشدة •

الأبيض : أصغر من حفيدتنا •

الأحمر : ليست حفيدتنا على أى حال •

الأبيض : لا تحرجنا •

الأحمر : ستعلم أنها أقوى أثرا من كافة العقاقير •

الأبيض : يا لها من مغامرة !

الأحمر : لن تكون أفظع من المطاردة اللعينة •

(الأحمر يصفق بيديه • نسمع موسيقى الزفة • تدخل العروس بين شابين هما أمين من أمناء الشرطة حاملا جهازه اللاسلكى ومأذون عصرى متأبطا دفتره مرتديا بنطلونا وقميصا أمريكيا

متعدد الألوان . يقدمان العروس ويذهبن .
الثلاثة يتبادلون النظرات ..) .

الأحمر : مبارك يا عروس .

(العروس تضحك ضحكة عذبة دون أدنى ارتباك)

الأحمر : خذى راحتك على آخرها فأنت فى بيتك .

العروس : شكرا .. ولكن .

الأحمر : أفصحى عما تريدين بكل حرية .

العروس : أشعر كأنى فى حاجة الى تشجيع .

الأحمر : قلت لك انك فى بيتك .

العروس : أعنى أنه من المفيد .. أعنى أن قليلا من .. الويسكى .. !

الأحمر والأبيض : ويسكى !

العروس : قليل منه مناسب .

الأحمر : هل لك تجربة سابقة به ؟

العروس : فى نطاق ما يسمح به عمرى .

(الأحمر والأبيض يتبادلان النظر فى ذهول . ينتحيان جانبا) .

الأحمر : فى نطاق ما يسمح به عمرى !

الأبيض : سمعت كل كلمة .. ما رأيك ؟

الأحمر : ما كان كان .

الأبيض : عظيم .

الأحمر : ولكن الخمر مضرة لنا ونحن لم نجدد الكبد •
الأبيض : ولم نجدد القلب ولا العروق •
الأحمر : الله معنا •
(يرجعان وهما يبتسمان) •
الأحمر : ما أجمل أن نستغنى عن الخمر •
العروس : أتسمعنى وعظا فى ليلة الزفاف ؟
الأحمر : كلا ، ولكنها الصحة •
العروس : أأنت مريض ؟
الأحمر : كلا •• ما زلنا بعيدين عن سن الأمراض !
العروس : اتفقنا !
الأحمر : (ضاحكا) يبدو لى أنك فتاة ذات ذكاء وتجربة •
العروس : هذا هو طابع القرن !
الأحمر : لا أستبعد أن تكونى على الملم بالتربية الـ •••
العاطفية •
العروس : العاطفية ؟
الأحمر : أعنى الجنسية ؟
العروس : أووه •
الأحمر : لكنها لم تقرر بعد فى المدارس !
العروس : (ضاحكة) لكنها مقررة فى أماكن كثيرة !
الأحمر : يا لك من عروس مثيرة !
العروس : اذا كنت ممن يخافون فلم زججت بنفسك فى الحياة

الزوجية ؟

الأحمر : لا خوف هناك ولكن للأسر العريقة تقاليدها •

العروس : طظ !

(الأحمر يتظاهر بالضحك وكذلك الأبيض) •

الأحمر : أسلوبك بديع ولكنه جرىء ، أجرأ من أساليب العذارى !

العروس : لم يعرف التاريخ الا عذراء واحدة !

(الرجلان يتبادلان النظر فى ذهول • العروس تفتح حقيبة يدها وتخرج منها زجاجة ويسكى •• تشرب •• وتمد بها يدها اليهما) •

العروس : يبدو أنك بخيل ، خذ واشرب والا غضبت •

(الأحمر يحرج فيتناول الزجاجة ويشرب ثم يعطيها الأبيض فيشرب ، وتنتقل الزجاجة بينهم) •

العروس : ذلك مفيد جدا فى التغلب على الحياء !

الأحمر : (مندهشا) الحياء ؟ !

العروس : نعم الحياء ، أنت لم تر شيئا بعد •

الأحمر : نخب الحياء •

(الزجاجة تدور • فى نشوة يقبلان العروس فى الخدين فى وقت واحد) •

الأحمر : (للعروس) لعلك مندهشة لأن القبل تنهال عليك من رجلين لا من رجل واحد •

العروس : (وهى منتشية) اقبل نعم مشكورة لا يجوز أن نفسدها بالتساؤل !
الأحمر : (ضاحكا) الحقيقة أن لك زوجين لا زوجا واحدا !
العروس : (منقلة البصر بينهما) أرجو أن أجد فى ذاك الكفاية حتى أنعم بالاستقرار المنشود ٠
(الرجلان يتبادلان النظر ثم يغرقان فى الضحك ٠ الزجاجة تدور مع القبلات) ٠
الأحمر : لم نفلح فى اثارة دهشتك ولو مرة واحدة !
العروس : عسير جدا أن تثار دهشة فى هذه الأيام ٠
(الأبيض يتصنت فى ترقب مفاجىء) ٠
الأبيض : (للأحمر) سمعت شيئا ؟
(الأحمر ينصت ٠ يترامى وقع أقدام) ٠
الأحمر : لعله عابر سبيل ٠٠
الأبيض : ولكنها أقدامه هو ٠
الأحمر : غير معقول ، وحتى لو كان هو فلن يتعرف علينا ٠٠
العروس : هل تتوقعان قدوم أحد ؟
الأحمر : كلا ٠
العروس : أظن أن اثنين فيهما الكفاية !
(الرجل يدخل ٠ هو هو كما رأيناه ٠ يذهب ويجىء فى سرعة تفوق سرعاته السابقة كلها ٠
الأحمر : اللعنة ٠

الأبيض : أعوذ بالله •
العروس : هذا الرجل أذكره •
الأحمر : أنت أيضا تعرفينه ؟ هذا ما توقعته ، انه مجنون •
العروس : مثل جميع الطاعنين فى السن فيما يبدو •
الأبيض : ولكنه ليس طاعنا فى السن فيما يبدو •
العروس : كان صديقا لأبى ••
الأحمر : (باصرار) لنشرب •
(تدور الزجاجة بينهم) •
الأحمر : لا مفر •
الأبيض : لا مفر •
العروس : ظننته يوما يطاردنى للحب ••
الأحمر : انه مجنون بداء المطاردة •
العروس : لا يبعد أن يكون لطيفا خفيف الروح •
الأحمر : عرفناه أكثر منك •
(صمت)
الأحمر : (للرجل متحديا وهو ثمل) اجر •• اجر •• افعل ما تشاء •• ماذا يهم ؟ •• ولكن لا تعد نفسك منتصرا •• لن نقتنع بأنك تتعرف علينا بحاسة مجهولة •• أبدا •• الحكاية أن البلد ملأى بالجواسيس •• أنت على صلة بالشرطى أو المأذون أو طبيب التجميل أو الصيدلى •• لا سر هناك

ولا معجزة •• افعل ما تشاء •• اجر •• اجر حتى تقع مغشيا عليـــك •• وسوف نضـــحك كثـــيرا وطويلا ••

الأبيض : (للرجل) ليتك تشرب معنــــا ، الشرب صنع لنا معجزات ••

العروس : كيف أنساكما هذا الرجل عروسكما ؟

(يدور الشراب والقبلات والأحضان) •

الأحمر : (للرجل) سنفعل ما يحلو لنا تحت سمعك وبصرك ، سينبت فى رأسك قرنان وأنت تجرى كالمجنون ••

الأبيض : (للرجل) معذرة ، للخمر سلطان وللحب سلطان ، ولكننا فى الواقع نحترمك ، صدقنى فأنت تشغل من وقتنا أكثر مما تتصـــور ، وأنا مقتنــــع بأنك لا تتعرض لنا بأذى ، وأننا فى الواقع مسئولون عن كل شىء ، فنحن الذين نعمل ونحن الذين نتغير ونحن الذين نكبر ، ولا حق لنا فى أن نعلق عليك الأخطـــاء والمتـــاعب ، وبودى أن تقبـــل دعوتى للشراب !

الأحمر : (للأبيض) يا لك من منافق •

الأبيض : لا تفسد شهر العسل بسوء الأدب •

العروس : هل تزوجتمانى لقتل الوقت بالشجار والجدل ؟

(يرجعون للقبل والأحضان والضحك • العروس

والأبيض يرقصان . الأحمر ينظر نحو الرجل وهو يترنح من السكر) .

الأحمر : اجر .. لا يهم .. سيدور رأسك وتقـــع جثة هامدة ..

(العروس تتخلص من ذراع الأبيض ثم تتقبل نحو الأحمر فيرقصان معا . الأبيض وهو يترنح ينظر نحو الرجل) .

الأبيض : أود أن أقابلك على انفراد ..

(الرقص مستمر وكذلك الرجل) .

الأبيض : سيجرى بيننا حوار مفيد ، وان كان ثمة جديد فلعله يكمن فى صدرك الصامت ..

(الرجل يضرب الهواء بسوطه محـــدثا طرقعة رهيبة ..) .

(الأحمر والأبيض يتلاصقان . يحاولان مغادرة المكان ولكن قدميهما لا تسعفانهما . يسقطان . يزحفان على أربع الى الخارج حتى يختفيا تماما . العروس مستمرة فى الرقص وحدها .. الرجل تأخذ حركته فى التباطؤ رويدا رويدا حتى يقف تماما وهو يحرك قدميه (محلك سر) . العروس ترقص وحدها أمام الرجل) .

(ســـــتار)

تحقيق



دق جرس الباب • انفصل جسداهما فى حركة متشنجة بالفزع • وثبا الى ملابسهما وهو يهمس :

ـ قلت انك لا تتوقعين قدوم أحد ••

فقالت هامسة أيضا :

ـ لعله الكواء ••

وكان يرتدى ملابسه بيديه وقدميه ويقول :

ـ يجب أن أستعد للاختفاء ولكن أين ؟

ـ لا أظن أنك ستضطر الى ذلك ، واذا وقع المستحيل فادخل تحت السرير ••

وغادرت الحجرة وهى تحبك الروب حولها ثم ردت الباب • نظر الى أسفل السرير ولكنه مضى بخفة الى ما وراء الباب يتصنت • سمع صوت الباب وهو يفتح ، ثم وهو يغلق ، ووقع قدمين ثقيلتين • فى لحظات خاطفة توارى تحت السرير • من القادم ؟ • ليس الزوج والا لجاء الى حجرة النوم ليخلع ملابسه • ليس الزوج على وجه اليقين فقد اتصلت به تليفونيا فى الاسكندرية منذ ساعة واحدة • انه فيما يبدو من المترددين على البيت ، بل هو من أهل البيت على نحو ما والا ما اقتحمه فى هذه الساعة من الليل • لبد فى مكمنه يمزقه القلق

والاحساس بالنكد بعد أن ثمل بدفء اللذة • وليصبر فسيذهب عاجلا ، لا يمكن أن تطول الزيارة الى ما لا نهاية ، وسينتهى بالتالى عذابه • انقضت عليه فكرة كحشرة طائرة ، ألا يحتمل أن يدخل القادم حجرة النوم فيرى زجاجة الكونياك وعلبة الشيكولاطة ؟ • هل يزحف الى الخارج ليعـود بالزجاجة والعلبة ؟ • لكنه لم يتحرك ، لم يجد الجرأة الكافية ، وأطبقت عليه التعاسة أكثر فأكثر • ومضى الوقت وطال وثقل • تلهى بالنظر الى نقوش السجادة وألوانها وقد اختلطت وغامت تحت نور الأباجورة الأحمـر الخافت ، والى أرجـل المقـاعد والشيفونيرة المغروزة فى وبر السجادة • وارتعد لسـماع صوت طارىء ، ثم رأى باب الحجرة وهو يفتح فى هدوء • دخل شخص بلا ريب ، ها هو حذاؤه الأبيض ذو السطح البنى وطرف بنطلونه • واتجه يسارا نحو الصوان ففتحه • وقف أمامه دقيقة أو دقيقتين ولكن أين لطفيـة ؟ • وأغلق الصوان ثم مضى نحو الباب فى هدوء كما جاء • ترى ما معنى ذلك ؟ • ومتى يخرج من زنزانته ؟ • واشتد به التوتر والارهاق واليأس • خيل اليه أنه وقع فى شرك وأن يدا حديدية تمتد للقبض عليه وأن قدميه تندسان فى حذاء أبيض ذى سطح بنى ، وأن عليه أن يرسم خطة كاملة للتملص من مأزقه فى زنزانته • وقال له صوت باطنى يضطرم بالرعب والالهام ان نجاته رهن بقوة خياله ، وأنها وحدها القادرة على تحويل

الكابوس الى حلم • وهو لن يبقى تحت السرير الى الأبد فى هذا الصمت العميق العجيب • انه يمد ذراعه لينظر فى الساعة ، ويخرج رأسه فى حذر كالسلحفاة ليتنفس هواء نقيا بعض الشىء • ويرهف السمع فيجد هدوءا مخيفا ولكنه يشجع على مغادره الزنزانة • كأن الموت يربض فى الظلام مجمدا كل حركة مسكتا كل صوت • وأرهقه التعب لحد التهور • وتجمعت كل قواه المضمحلة فى وثبة جنونية للدفاع عن النفس فى مغامرة مرتجلة يائسة ••

***

طلع الصبح دون أن يغمض له جفن • سمع دقات رفيفة على باب حجرته • وجاءه صوت محشرج هاتفا :

ــ سى عمرو ، اصح ••

ما أجدر أن يتغيب اليوم بعذر ما ولكنه نبذ الفكرة بلا تردد قائلا لنفسه « هو الجنون بعينه » ، وصاح :

ــ صحيت يا أم سمعة !

ولما جلس الى المائدة الصغيرة فى الصالة رأى طبق المدمس وقدح الشاى باللبن والرغيف المجمر فمد يده الى القدح وهو يقول :

ــ سأكتفى بالشاى ••

فلم يفصح وجه العجوز عن تعبير • وجه ذو سحنة واحدة • ولكنها قالت :

ـ كل لقمة تسند قلبك ..

المنظر المرعب لا يبرح مخيلته . يعذبه ويطارده . فر بقوة تركيبه وتدفعه بلا حـذر . نسى زجاجة الكونيـاك وعلبـة الشيكولاطة فلم يذكرهما الا فى ظلام حجـرته . ارتدى ملابسه وغادر الشقة . حمل الأرض فوق رأسه . ابتاع جريدة الصباح وهو يخترق شارع القبة بالجيزة ولكنه قال لنفسـه « لم يكتشف شيء بعد » . وأخيرا وجد نفسه جالسا الى مكتبه بالادارة . وجاء الرئيس فى أعقابه وامتلأت المكاتب الا واحدا . ونظر الى المكتب الخالى بعين متلصصة ، وهو يقع فيما أمامه على الجانب الآخر للحجرة . وشرع فى العمل وهو يختلس اليه النظر . اذا تمت له النجاة فسيحزن عليها طويلا أما الآن فلا وقت لديه للحزن . وتساءل الرئيس :

ـ ست لطفية لم تحضر ، ألم تعتذر ؟

ولما لم يسمع جوابا عاد يقول :

ـ الموظفات أعذارهن لا تنتهى ..

وأثار قوله ضحكات على سبيل التشفى أو الملق . لم يشترك فى الضحك . تساءل فيما بينه وبين نفسه ترى ألم يلاحظ أحد شيئا مما كان يتبادل فى صمت بينه وبين المكتب الخالى ؟ . ربما أدلى شاهد بملاحظة عابرة تقلب دنياه رأسا على عقب . أو يكون آخر رآهما فى احدى منعطفات شارع الهرم . ثم انه نسى هناك زجاجة الكونياك وعلبة الشيكولاطة .

أى أسرار يمكن أن تبوح بها الزجاجة والعلبة ؟ • ان كل شىء ينطق أمام شياطين المحققين ويخلق الأساطير • وغير بعيد أن يكون قد نسى أشياء أخر • وبصماته انطبعت بلا حساب ولا حذر • وربما وقع المحققون فى الشرك وأغمضوا العين عن القاتل الحقيقى •

وجاءه صوت الرئيس وهو يقول بصوت آمر رنان :

ــ يا سيد عمرو ، سأحول اليك الأوراق العاجلة الداخلة فى اختصاص ست لطفية ••

لماذا اختاره هو بالذات ؟ • ربما لأنه أحدث الموظفين عهدا بالوظيفة • أم تراه يعنى شيئا وراء ذلك ؟ • انه قصير ماكر ذو نظرات تحتانية فهل يعنى شيئا آخر حقا ؟ ! • واسترق نظرة من الوجوه ليرى أثر الأمر الادارى ولكنه لم يقرأ شيئا • كل شىء هادىء وعادى • والقاتل مجهول فما معنى الخوف ؟ • وكان يصارع التشتت والتمزق عندما سمع صوتا غريبا يسأل بأدب :

ــ هل الست لطفية موظفة فى هذه الادارة ؟

فأجابه موظف :

ــ أجل ولكنها لم تحضر اليوم •

نظر الى القادم باهتمام فرأى شابا طويلا نحيلا غامق السمرة يرتدى قميصا أزرق وبنطلونا رماديا ، سرعان ما غادر الحجرة على أثر الاجابة التى تلقاها • لم يسأله أحد عن

هويته ولم يعلن هو عنها ، ونسى تماما بمجرد اختفائه • فكر فيه طويلا وساورته مخاوف شتى • وتجسدت لمخيلته الجثة ربما للمرة الألف • وتذكر كيف انهـزم لدى رؤيتها ففـر كالمجنون • غرق فى أفكاره ثم صحا بعد وقت لا يمكن تحديده على حديث يدور حول حذاء أبيض • ارتعد قلبـه • ماذا يقولون ؟ • أحدهم يقول ان الأحذية البيضاء باتت نادرة الاستعمال ، فقال آخر ان الحذاء يعجبه ، فعاد الأول يقول انه يتسخ لأوهى الأسباب ويصعب تنظيفة وتلميعه بسبب سطحه البنى • اشتدت به الرعدة فتساءل :

ـ ما حكاية الحذاء ؟

فأجابه الموظف الأول :

ـ حذاء أبيض ذو سطح بنى من النـوع الكلاسيكى ، رأيناه فى قدمى الشاب الذى جاء يسأل عن لطفية •

ـ لا !

ـ ندت عنه بعصبية ملفتة للانتباه وهو يتهاوى فى انهيار كامل • ولما شعر بالأعين المحدقة فيه قال :

ـ آسف ، الظاهر أنى أصبت بالأنفلوانزا !

وضحك ضحكة عالية لا تناسب المقام • ولم يستطع صبرا فسأل الموظف الآخر :

ـ أكان الشاب ينتعل حذاء أبيض ذا سطح بنى ؟

ـ أجل ، وهو يعجبنى ، هذه هى المسألة •

واستأذن فى الذهاب الى دورة المياه ولكنه اندفع فى الطرقة الموصلة الى الباب الخارجى • ودار دورة عشوائية حول مبنى الوزارة ولكنه لم يعثر للشاب على أثر • ولبث مذهولا وهو يقول لنفسه : هكذا تقع الأحداث التى نسمع عنها من بعيد دون مبالاة •

***

احتلت الحادثة مكانها فى صفحة الحوادث • قرأ بعناية وانتباه كامل • بدأت بملاحظة عابرة من البواب لباب شقة المقاول حسنين جودة الذى لم يكن مغلقا كعادته وانتهت باكتشاف جثة زوجة المقاول الموظفة • اتصل بشرطة النجدة • تبين أن المرأة خنقت بينا كان زوجها فى رحلة تجارية بالاسكندرية • لم تكتشف سرقة • عثر على زجاجة كونياك وعلبة شيكولاطة • وطبعا التحقيق ماض فى طريقه الى الكشف عن أسرار الجريمة والقبض على القاتل • ووجد الموظفين واجمين والجو مشحونا بأخبار الجريمة وتأويلاتها • ثمة حسرة ورثاء ، وتساؤل عن بواعث الجريمة ، وعن معنى وجود الكونياك والشيكولاطة فى غياب الزوج • وقال أحدهم :

ـــ كل شىء مفهوم ولكن لم قتلها ؟ •

أجل لم قتلها ؟ • وقعت الواقعة فى مجال تنفسه وهو لا يفقه لها معنى • ليس الواقع كما يتصورون وسوف يندفعون جميعا كالسكارى فى طريق الضلال ليرتكبوا جريمة أخرى •

وقد جاءهم صـــاحب الحذاء بقدميه ولكنهم يتســـاءلون عن صاحب الخمر والشيكولاطة • هو وحده يتشوف لمعـــرفته وكشف سره المغلق فلعله يعثر عليه فى الجنازة • بل يجب أن يعثر عليه فى الجنازة كما يقضى به المنطق • وذهب ممتلئا بالتصميم بقدر ما هو ممتلىء بالشجن • وتفحص بعين ثاقبة أهل الفقيدة من المستقبلين • رأى الزوج الذى يوشك أن يصرعه المرض ، ورأى آخرين ، ولكنه لم يعثر لضالته الماكرة على أثر • وسار وراء النعش وهو يختلس اليه النظر بقلب منقبض • وكاد الى حين ينسى مخاوفه تحت موجة الحزن التى غمرته • وتذكر قصة حبه القصيرة العميقة التى مضت فى عناء ولم تخلف الا التعاسة والرعب •

***

من هو صاحب الحذاء الأبيض ؟ • هل رآه البواب ليلة الجريمة وهل يعرفه ؟ • أما هو فقد رآه البواب ، ولما سأله عن مقصده أخبره أنه ذاهب الى طبيب الأسنان بالدور الثالث ، والى العيادة ذهب فعلا للكشف والتنظيف تنفيذا لتدبير حكيم اتفق عليه مع الفقيدة ، فمن تلك الناحية لا خوف عليه •

وقال موظف بالادارة بعد أن فرغ من قراءة الجريدة :

ـــ الأمور تتضح ، فالزوج مريض جدا ، وله مطلقة أنجب منها شابا وشابة جامعيين ، والعلاقة بينه وبين أسرته الأولى سيئة جدا ••

فقال ثان :
ـــ واذن فيهم أسرته الأصلية التخلص من الزوجة الجديدة قبل أن تستولى على أموال أبيهم ..
وتساءل ثالث :
ـــ هل من علاقة بين ابن المقاول وبين الخمر والشيكولاطة ؟
فقال الأول :
ـــ لن يفوت المحقق شيء من ذلك .
فقال رابع :
ـــ سيصلون اليه عن طريق الزجاجة والعلبة ..
فقال عمرو وهو يدارى حنقه :
ـــ توجد آلاف الزجاجات وآلاف العلب !
ـــ ولـــكن العلبـــة تدل على الدكان والدكان تدل على الشارى ، وقد يعثرون على لفافة الزجاجة فيعرف المخزن أو المحل ..
ـــ ثم يعرض الشاب أو المتهم على عمال المحل والمخزن .
جميع الأدلة متوفرة اذا تركزت الشـــبهات فى الزجاجة والعلبة . فكر فى ذلك طويلا وقلبه يغوص فى أعمـــاق من الكآبة . وعاد الموظف الأول يقول :
ـــ الأمر واضح ، ابن المقاول أنشأ علاقة مع المرحومة ثم قتلهـــا ..

لعل ذلك كذلك ، أو لعل القاتل هو صاحب الحذاء الأبيض ، أو لعل ابن المقاول هو صاحب الحذاء الأبيض • ان صح احتمال من تلك الاحتمالات فقد نجا هو من كل سوء كما ينبغى له ، أما اذا أصر المحقق على تتبع أثر صاحب الخمر والشيكولاطة فلن يعجز عن الوصول الى مصدريهما ، وهو ــ عمرو ــ معروف بشخصه دون هويته لدى صاحب محل « الزهرة » كما هو معروف عند فتاة حلوانى « ألف ليلة » ، وغير بعيد أن أوصافه تتردد فى هذه اللحظة على الشفاه بين جدران حجرة التحقيق •

***

ونشرت صور لطفية وحسنين زوجها ومحمد ابنه لأول مرة فى الجريدة • وتبين لعمرو أن ابن المقاول شخص آخر غير الشاب صاحب الحذاء الأبيض • وتابع تعليقات الموظفين بالادارة باهتمام وتركيز :

ــ تقول الجريدة ان الشرطة عثرت على خيوط يمكن أن تؤدى الى القاتل ••

ــ لعلها تقصد الشاب ابن المقاول ؟

ــ أو الزجاجة والعلبة ؟

ــ سر الجريمة كامن فى الزجاجة ••

ورفع الرئيس رأسه عن رسالة كان يقرؤها بامعان ثم قال :

ــ يا جماعة ، نحن مطلوبون جميعا لسماع أقوالنا ..

***

شهد كل موظف بما يعلمه ولم يكن ذا بال ، مثل تاريخ التحاق لطفية بالعمل منذ عشرة أعوام ، وزواجها منذ عامين . وشهد لها الرئيس بحسن السير والسلوك والمعاملة ، وبأنها كانت موظفة ممتازة . ولكن الفراش ــ عم سليمان ــ أدلى بواقعة مهمة فقال انه رآها مرة بصحبة شاب قبيل زواجها هو نفس الشاب الذى جاء الادارة صباح الجريمة سائلا عنها . وأكد الجميع واقعة الزيارة الصباحية وأعطوا أوصافا تقريبية للشخص . واهتم المحقق بالواقعة بطبيعة الحال . ولما دعى عمرو لأخذ أقواله عن الشخص المجهول وصفه بدقة ملحوظة ، طوله وحجمه ولونه وملابسه حتى الحذاء ، فقال له المحقق :

ــ يبدو أنك تفحصته بعناية !

فتضايق عمرو من الملاحظة ولكنه قال بثبات :

ــ كان يقف أمامى مباشرة ..

وكان يشعر طيلة الوقت بضيق وتوتر فزادته الملاحظة ضيقا وتوترا . وضاعف من همه ما ذاع فى حجرة المحقق من

أنه ثبت أن ابن المقاول كان فى رحلة جامعية ليلة الجريمة ، وأن الشبهات تبددت ــ بالتالى ــ من حوله ..

***

تقمص دماغ المحقق فطارد نفسه بنفسه . من الشاب الذى رآه عم سليمان مع الفقيدة ولم زار مكتبها صباح ارتكاب الجريمة ؟ . محتمل أن يكون صاحب الخمر والشيكولاطة او يكون شخصا آخر لا علاقة له بالجريمة . السر قابع وراء الزجاجة والعلبة . فلنتخيل القصة من بدايتها عندما بدأت بغرام . انتهز العاشقان فرصة سفر الزوج فتواعدا فى بيت الزوجية . وفى الموعد المضروب تسلل الشاب الى العمارة . يسير" التسلل الى عمارة ضخمة بها أكثر من عيادة طبية . وها هو يجالسها كما يفعل العشاق . كيف ومتى سيطرت فكرة القتل ؟ . انها لا تخلق بغتة وبلا مقدمات . ربما جاء بها جاهزة معه . وغير بعيد أن تنشأ عقب خلاف طارىء أو اثر ميل من المرأة نحو انهاء العلاقة . لعله شاب غر ومحب حتى الجنون وقع فى هوى امرأة طموح لا حد لطموحها فتزوجت من المقاول وأبقت على علاقة الشاب بها لتستحوذ على المال والجاه والحب فكرهها بقدر ما أحبها ولما قالت له بدلال وهى تلاطفه « اخنقنى » طوق عنقها بقبضتيه وشد بكل عنف فلم يتركها الا جثة هامدة . ارتكب جريمته ثم هرب ولكنه نسى وراءه الزجاجة والعلبة . سيظل مهددا بأن تراه فتاة حلوانى

دمشق أو صاحب محل « الزهرة » أو يساق اليهما فى ظرف ما فيتعرفان عليه • ويتضح أنه زميل للفقيدة فى ادارة واحدة فتقوى الشبهة وتتوطد • واذا اعترف بأنه صاحب الزجاجة والعلبة ، وبأنه كل عشيق المرأة ، فأى قوة يمكن أن تدفع عنه التهمة أو تنقذه من حبل المشنقة مهما أنكر وأصر على الانكار ؟!

***

من الحكمة أن يكمل علاجه عند طبيب الأسنان • ها هو الطريق مرة أخرى وها هى العمارة • ترى أما زال حسنين جودة يشغل العمارة ؟ • وجد البواب فوق الأريكة وراء الباب مباشرة • انه صعيدى فيما يبدو ، ويلف سيجارة • ومضى الى الداخل فقام الرجل وتبعه • دخل المصعد وراءه فقال باقتضاب :

ــ الدكتور نصر طبيب الأسنان •

وهو يغادر المصعد فى الدور الثالث حانت منه نظرة الى الأرض فرأى حذاء البواب فارتعدت مفاصله • حذاء أبيض ذو سطح بنى ! مضى الى العيادة بذهن مشتت • أيكون البواب هو القاتل ؟ • ولكنه يذكر تماما أنه رأى الحذاء تحت طرفى بنطلون لا جلباب • أم يكون البصر قد خدعه ؟! • وغرق فى ذهوله حتى دعى الى حجرة الكشف • جلس وهو يتساءل :

ــ هل ينتهى التنظيف فى هذه الجلسة ؟

فقال الطبيب :

ــ أراك نافد الصبر •

فسألته :

ــ ما أخبار الجريمة ؟

ــ آه .. تلك المرأة ! كنت أعرفها جيدا فقد حضرت مع زوجها عند تركيب ضرسين له !

ــ كانت زميلتى فى المكتب !

ــ حقا ؟ !

وندم على ثرثرته أما الطبيب فقال :

ــ عم خليل التمرجى اعتقد أنه رأى القاتل .

ــ حقا ؟

ــ انه يسكن فى حجرة فوق السطح وكان يمر أمام شقة القتيلة عندما رأى رجلا يغادرها .

ــ أرآه جيداً ؟

ــ لا أدرى .

ــ كان يجب أن يدلى بشهادته .

ــ وقد فعل .

من الذى رآه التمرجى ؟ . ولأى درجة تمكن من رؤيته ؟ . هل ساوره شك من ناحيته ؟ !

***

وكان يغادر باب الوزارة عندما شعر بشـــخص يلاحقه فالتفت وراءه فرأى عم سليمان الفراش . نظر اليه متسائلا فقال الرجل :

ـــ عمرو بك ، الحق أنى لم أشـــهد فى التحقيـــق بكل ما أعرف !

فرمقه فى دهشة فقال الرجل :

ـــ كتمت شهادة لو ســـمعها المحقـــق لأتعب الأبرياء بلا موجب ٠

ـــ ماذا تعنى ؟

فقال الرجل وهو يبالغ فى الأدب :

ـــ رأيت حضرتك يوما وأنت تقبل المرحومة فى المصعد !

فهتف :

ـــ ماذا تقول ؟

ـــ رأيتك وأنت تقبلها ٠

خذلته أعضاؤه فى الواقع ولكنه تماسك بقوة فوق طاقة البشر وقال :

ـــ أنت أعمى بلا شك ٠

ـــ كتمتها خشية أن تدفع بك الى مواطن الشبهات !

فهتف :

ـــ أنت أعمى !

فتراجع الرجل قائلا :

ـــ لا مؤاخذة يا بك ، ما قصدت سوءا قط ٠

فتراجع بدوره قائلا :

ـــ انك على أى حال تستحق الشكر ٠

فقال الرجل وهو يمضى :
ـ الشكر لله •
انه يتمزق اربا • لا أمان ولا سلام ولا قدرة على تحمل مزيد من العذاب •

***

قال عمرو :
ـ لا خبر عن الجريمة فى الجرائد •
فقال موظف :
ـ أكبر الأحداث يشغل الصحف أياما ثم يختفى كأن لم يكن •
وقال آخر :
ـ فى رأيى أن النيابة هى التى منعت النشر •
فسأل عمرو :
ـ لماذا ؟
ـ هكذا يتصرفون اذا اكتشفوا حقائق يجب اخفاؤها عن القاتل •

وشعر بنظرات تلسع وجهه فالتفت بالغريزة ناحيتها فالتقت عيناه بعينى عم سليمان وهو يحمل القهوة للرئيس • جن بالقهر دقيقة ثم تساءل متى وكيف يشرع فى ابتزاز أمواله ؟ ! • ثلاثة تمنى أن يتخلص منهم ، فتاة الحلوانى وصاحب محل الزهرة وعم سليمان ، تمنى أن يتخلص منهم ليتغلب على

الأرق الذى احتل لياليه المضنية • وتتابعت المعجزات فصدمت سيارة نقل الفتاة الجميلة ، وقتل صاحب محل الزهرة فى معركة غادرة مع أحد العمال ، أما عم سليمان فقد مات فجأة وهو يعمل فى المقصف •

ولم يكد يتذوق قطرة من الراحة حتى دهمه صوت الرئيس وهو يقول :

ــ متى تبدأ العمل يا سيد عمرو ؟ !

***

وهبطت عليه فكرة من السماء • أوحت اليه بأن البواب ليس بالمالك المناسب للحذاء الأبيض • الحذاء لا يناسبه لا من الناحية الذوقية ولا من الناحية الاقتصادية • الأرجح أن يكون قد تلقاه هدية • فمن هو المهدى ومتى أهداه اليه ؟ • لعلها فكرة لا تقوم على واقع ولكنها جديرة بالاختبار • ومضى لتوه قاصدا عيادة الأسنان • وفى المصعد قال للبواب :

ــ حذاؤك جميل !

نظر اليه الرجل نظرة جامدة ولم يعلق فعاد يسأله :

ــ جاهز أم تفصيل ؟

أجاب الرجل :

ــ ممكن تفصل حذاء مثله عند أمين على بممر الديلمى •

هى اجابة وتخلص من الاجابة معا • قوى سوء الظن به •

وكان ممر الديلمى قريبا ، ودكان الاسكافى فى مطلعه على اليمين • حيا الرجل وقال :

ـ أريد تفصيل حذاء أبيض ذى سطح بنى •

فأجلسه الرجل على كرسى من القش المجدول وراح يسجل مقاسات قدميه • وفى أثناء ذلك قال له :

ـ رأيت حذاء مثله فى قدمى بواب العمارة رقم ١١ بشارع ٢٦ يوليو فأعجبنى ، وهو الذى دلنى عليك •

فقال الرجل بهدوء :

ـ ليس بين زبائنى بواب !

فخفق قلب عمرو سرورا بسلامة تفكيره وقال :

ـ لعله أخذه هبة من أحد زبائنك •

ـ يمكن •

ـ هل الطلب كثير على هذا النوع ؟

ـ من النادر أن يطلبه أحد ، وطلبك هذا هو الثالث من نوعه فى العامين الأخيرين •

فسأله باهتمام متصاعد :

ـ والآخران من أى طبقة ؟

ـ أحدهما قارىء والآخر ••

وتردد تردد من خانته الذاكرة فانحنى فوق دفتر متهرىء وفر صفحاته بسرعة وعمرو ينظر من فوق كتفه • وقال الاسكافى :

ــ حسام فيظى ••• غالبا موظف ••• لا يوجد فى الدفتر الا العنوان •

وغادر الدكان وهو يحفظ العنوان عن ظهر قلب !

***

اتبعث الهام فى صدره بأنه سيرى القاتل وأنه سيجد فيه نفس الشخص الذى اقتحم الادارة صباح ليلة الجريمة • وما عليه بعد ذلك الا أن يقابل المحقق ليعترف بين يديه بكل شىء ، أو الأفضل أن يحرر رسالة متضمنة لكافة التفاصيل • وكان البيت يقع فى شارع المتولى بمنشية البكرى ، وهو شارع سكنى نصف مساكنه عمارات حديثة والنصف الآخر بيــوت قديمة من دور ودورين ، وليس به من محال عامة سوى فرن وكواء ، فهو شارع يشعر الغريب الطارىء بغربته • مر أمام البيت عصراً فرأى فى شرفته فتاة فوق العشرين ودون الخامسة والعشرين ، أخذ منظرها بلبه فحلم بسعادة الحياة الزوجية واستقرارها الهانىء • قديما أسرته لطفية بحيويتها وعذوبتها الجنسية وتعلقها الجنونى به لدوافع قدرية مجهولة ، أما هذه الفتاة فمثال كامل للرزانة والحياء والصبر والخلق المتين • وهى زوجة القاتل ولعلها أخته • ولاحظ أن فى دكان الكواء امرأة قميئة عوراء تتابعه باهتمام ، واستنتج من سلوكها أنها صاحبة الدكان فأقبل نحوها ــ اكتسابا للوقت ــ وسألها

عن بيت حسام فيظى فأشارت الى البيت وهى تتفحصه بخبث بعينها اليسرى ، وقالت :

ــ وتلك أخته التى تجلس فى الشرفة •

لعلها ظنت أنه يحوم حول الفتاة فشكرها وهم بالذهاب فقالت المرأة :

ــ أسرة طيبة •

فوافق باحناءة من رأسه فسألته :

ــ هل تعرفهم ؟

فأجاب بالنفى ، واقتنع فى ذات الوقت بأن المرأة تقوم بدور الخاطبة • وحدثته عن حسام ودولت ، وأبدت استعدادا طيبا لتقديم أى خدمة شريفة • وقالت له بغتة وهى تغمز بعينها :

ــ ها هو حسام ذاهبا الى المقهى •

التفت عمرو وقلبه يدق بعنف •

ولكنه رأى رجلا لم تسبق له رؤيته • مضى بدينا أنيقا فاقع البياض غزير الشارب لا يمت بصلة للرجل الذى يبحث عنه • انهارت تقديراته وخاب مسعاه • وأدرك أن البــواب ما دله على عم أمين علما الا باعتباره أقرب اسكافى ، أما سر حذائه هو فما زال سرا ، وما زال احتمال أن يكون هدية قائما ،

وغير مستحيل فى النهاية أن يكون صاحبه •
ورجع الى النقطة التى منها بدأ •

***

لو تنكشف تلك الغمة فيملأ رئتيه بالهواء النقى بعمق وتوبة ، ويعزم جادا على اكمال نصف دينه بالاقتران من دولت فيظى ! ، لقد تجنب الاقتراب من شوارع برمتها كما يتجنب عينى عم سليمان • وثمة نسيان جاحد يسدل أهدابه على لطفية ومأساتها ، وهو الوحيد الذى يحترق فى خفاء بذكرياتها • وفكر ثم فكر ، وكتب رسالة مطولة للمحقق استهلها بقوله : « أنا صاحب الخمر والشيكولاطة ، واليك الشهادة الوحيدة التى تنفعك » • كتبها بعناية ودقة وحشدها بالتفاصيل ولكنه لم يوقع عليها بامضائه • ولم يرسلها ، أجّل ذلك حتى يستوفى التفكير فى كافة وجوهها واحتمالاتها • وقال لنفسه انه لن يذوق للراحة طعما حتى يلقى القبض على القاتل • وتساءل • أى بواعث يا ترى دفعته الى قتلها بعدما ثبت من التحقيق أنه لم تكتشف سرقة وراء الجريمة ؟ • أما كان الأجدر أن يقتلها هو — عمرو — وقد توفرت لديه لذلك أسباب وأسباب ؟• كان يمقتها بقدر ما كان يحبها ، ولم يغفر لها نهمها الجنونى للمال والسلطان وتضحيتها به فى سبيل ذلك • وكان يشد عليها بقوة وهى بين ذراعيه رغبة وحنقا • على أى حال فلا يجوز له أن يمنى النفس بحياة زوجية سعيدة مع دولت فيظى حتى

تنكشف الغمة تماما وتهدأ أعاصير الوجود • وذهب من فوره الى العمارة المشئومة ليكمل علاج أسنانه • وانتهز فرصة هبوط المصعد فصعد الى الدور الرابع بقوة لا تقاوم • وجد المصباح فوق باب شقة المقاول مضاء • فتح الباب فظهر المقاول وهو يوسع لضيف فتوارى عمرو فى نهاية الطرقة • وسمع حوارا بينهما فقال المقاول :

ــ لا تنس عيد الأضحى •

فأجاب الرجل .

ــ كل عام وحضرتكم بخير •

فقال المقاول :

ــ سنذبح هذا العام بقرة •

فقال الرجل :

ــ ونصنع من جلدها حذاء كلاسيكيا •

فخفق قلب عمرو وشعر بأنه قريب من النصر أكثر مما يتصور • وخرج الضيف فأفلتت من عمرو صيحة فوز • رأى أمامه غريمه دون سواه • القاتل المجهول المحوط بالأسرار • وانقض عليه كالوحش وقبض على ذراعيه وهو يصيح :

ــ أنت القاتل !

وذعر الرجل واختفى المقاول مغلقا الباب فضاعف ذلك من وحدة الرجل الغريب وهتف :

ــ أى قاتل !

فلطمه بقوة هدامة وصاح به :
ــ اعترف !
فتمتم الآخر بصوت كالأنين :
ــ رحماك !
ــ أنت الذى قتلت دولت فيظى !
وفطن الى هفوة لسانه أما الآخر فلم يفطن ، وانهار تماما فقال :
ــ أعترف .. ولكن لا تضربنى .
فدفعه أمامه وهو قابض على ذراعيه بوحشية .

***

وفكر طويلا فى موضوع الرسالة دون حسم . وهداه تفكيره الى وجوب كتابتها على آلة كاتبة ما دام مصراً على اخفاء امضائه ــ وبالتالى شخصه ــ اذ ليس من حسن الفطن أن يرسل خطه الى المحقق . واقتنع بذلك لحد أنه عزم على شراء آلة كاتبة صونا للسرية اللازمة . وكان يتخبط فى فراغ مخيف بين صمت الصحف وعينى عم سليمان حتى اعتقد أن بقاءه فى المدينة حمق ما بعده حمق ولكن أين المفر ؟ ! . وقال له عم سليمان مرة وهو يقدم له القهوة :
ــ لست على ما يرام يا أستاذ عمرو .
فغلى دمه لظنه أنه يطبق عليه الحصار ولكنه قال ببرود وهو يكبح انفعالاته المتطايرة :

ـ بخير والحمد لله •

واشترى فى ذات اليوم الآلة الكاتبة ـ وهو آسف ـ لارتفاع ثمنها • ما أجدره بالتوفير ، لا بالتبذير ما دامت فكرة الزواج من دولت تغزو خياله بسحرها • ونظر الى حذائه الأبيض ذى السطح البنى وابتســم فهو لا ينسى أنه كان المناسبة التى هيأت له التعرف بحسام فيظى وبالتالى بمنية القلب دولت • فما كاد الرجل يغادر دكان عم أمين علما حتى قال له عمرو :

ـ فصل لى حذاء مثل حذائه •

فابتسم الرجل وقال :

ـ ندر فى أيامنا الاقبال على هذا الصنف رغم فخامته •

فتردد عمرو قليلا ثم سأله :

ـ من الرجل ؟

ـ حسام فيظى ، موظف ، لا أدرى فى أى وزارة رغم أنه زبون قديم مثل حضرتك !

ـ ومن الفتاة ؟

ـ أخته ، اسمها دولت •

ـ لعلك تعرف عنوانه ؟

فضحك وقال :

ـ ١٤ شارع المتولى بمنشية البكرى •

فحق له أن يأسف لشراء آلة كاتبة ، ولكنه اشتراها على أى

حال • وكتب عليها رسالته المثيرة ، ثم عنونها ، ثم أودعها صندوق البريد •

عند ذاك شعر بشيء من الراحة لأول مرة •

***

وكان عاكفا على عمله بالادارة عندما طرق أذنيه صوت وهو يسأل قائلا :

ـ أين الست لطفية ؟

رفع رأسه بقوة وفزع فرأى أمامه الشاب المجهول الذى اقتحم الادارة غداة ليلة الجريمة • وأحدث ظهوره المفاجىء دهشة عامة أما سؤاله فأذهلهم • وتكهرب عمرو من الرأس الى القدم • ها هو الشيطان الخفى ، حتى الحذاء لم يغيره • أين كان ، ولماذا جاء ، وماذا يعنى سؤاله ؟ • وفى لحظات أغلق عم سليمان باب الحجرة ووقف وراءه متحفزا أما الرئيس فسأل القادم :

ـ من أنت ؟

فتجاهل سؤاله وعاد يسأل :

ـ أين الست لطفية ؟

ـ ولم تسأل عنها ؟

ـ ذاك أمر يعنيها وحدها •

ـ ولكن من أنت ؟

فأجاب بحياء :

ـ لا أهمية لذلك •
ـ ألم تسمع بما وقع للست لطفية ؟
ـ خير ان شاء الله !
ـ لم لم تزرها فى بيتها ؟
ـ لا علم لى بمكانه !
ـ ألم تعرف بأنها قتلت منذ عشرة أيام ؟
فارتسم الذهول فى وجهه وتمتم :
ـ قتلت ؟ !
ـ ألم تقرأ الصحف ؟
ـ أنا لا أقرأ الصحف !
ـ على أى حال فالمحقق يرغب فى مقابلتك •
ـ أنا ؟ ، لماذا ؟ •
ـ طبيعى أن يرغب فى استجواب جميع من كانت لهم علاقة بالفقيدة •
صمت الرجل مليا حتى أفاق بعض الشىء من وقع الخبر ثم قال بهدوء :
ـ انى على تمام الاستعداد للقائه •

***

ها هو ذا الشبح • ها هو الحلم • جاء يسعى على حذائه الأبيض • أى قاتل ، وأى مناورة يلعب بها ! • وقد استدعى عم سليمان للمواجهة ، وعن عم سليمان علمت الادارة بأنباء

الرجل • علمت بأنه يدعى محمود الغر وأنه سواق تاكس •
وقد تعاقدت الفقيدة معه ـــ قبل زواجها بعام ـــ لاستغلال
تاكس تملكه • وحرصت من بادىء الأمر على سرية الموضوع
لكونها موظفة من ناحية ولأنها أخفت صفقة التاكس عن أهلها
حتى لا تسأل عن مصدر المال الذى ابتاعته به ، فكانت تلقى
السائق فى الجراج • وظل الرجل على جهله بمسكنها ولكنها
دلته على مكان عملها ليهتدى اليها فى الطوارىء • ولما وقع
الطارىء ذهب للقائها فى الادارة صباح ليلة الجريمة ، فلما
لم يجدها اضطر للتصرف بمفرده فسافر بأسرة عربية الى
الاسكندرية ولبث فى خدمتها هناك حوالى الأسبوع أو أكثر •
وانتظرها فى ميعاد اللقاء المعتاد ولكنها لم تحضر فذهب الى
الادارة مرة أخرى لمقابلتها • وتم التحقق من أقواله واختبرت
بصماته ثم أفرج عنه !

دار رأس عمرو • ها هى الأمور تتعقد كما لم تدر له فى
حسبان • وها هو يتحدر فى تيه • وشد ما ندم على
رسالته المذهلة • ولكن واقعة التاكس حقيقة لا شك فيها •
استيقظت فى وجدانه الآلام الغافية • ألم يقل لها بصراحة
« انى أحتقر تصرفاتك ؟ » • وكيف استجابت ؟ •• قالت
بززانة مرغبة :

ــ ليكن رأيك ما يكون ولكنك تحبنى !

فقال بحنق :

ـــ تبيعين نفسك لوحش بسيارة !

ـــ ولكنك تحبني ؟

فصمت صمتا ذا مغزى لا يخفى فضحكت وقالت :

ـــ لا تغتم بتصرفاتي ولا بزواجي نفسه ما دام قلبي لك وحدك .

وقال لنفسه بأنه قضى على قلبه بأن ينقسم الى قسمين ، تلك العذابات الجهنمية ، التي لم تقتلع من وجدانه تماما حتى وهما يذوبان في ضوء الأباجورة الأحمر . واستقر حذاء أبيض ذو سطح بني على السجادة بين الصوان والخوان الحامل للزجاجة والعلبة ، وتموجت تهاويل غشاء الجدران الورقي ، وتفشت في الجو هينمات منسالة من كون مجهول ، وتخطت الذروة عندما راحت تغازل يديه بنشوة جنونية وتقول له بدلال « اخنقني » .

***

ودخلت أم سمعة الشرفة وهو وحيد يستجدي نسمة من ليل الصيف وقالت له :

ـــ ضيوف على الباب .

فسألها :

ـــ تعرفينهم ؟

ـــ كلا ، قالوا افتحي فجئت لأخبرك .

فتح شراعة الباب فرأى وجها لم يره من قبل فغاص قلبه •
فتح الباب مستسلما فدخل الرجل وتبعه ثلاثة •
اندفع الثلاثة يفتشون وقال له الرجل :
ــ معذرة ، تفتيش لابد منه ، هاك أمر النيابة !
فسأله بصوت ضعيف :
ــ عم تفتشون ؟
ــ آلة كاتبة •
وجيء بالآلة فتفحصها الضابط وقال :
ــ هي التي كتبت عليها الرسالة •
وبسط أمام عينيه الرسالة التي تطوع بارسالها وسأله :
ــ رسالتك ؟
فقال يائسا :
ــ لا علم لي بشيء مما تتحدث عنه •
ــ متى اشتريت هذه الآلة ؟
ــ اشتريتها ولم أسرقها ولست مطالبا بتفسير سلوكي !
ــ ستعرض أنت على عمال المحلين اللذين اشتريت منهما زجاجة الكونياك وعلبة الشيكولاطة ، فهل أنت مصر على الانكار ؟ ، ولم تصر على الانكار ما دمت بريئا ؟

وفي سيارة الشرطة سأل الضابط عما جعله يشك في أمره فيفتش مسكنه ولكن الرجل ابتسم ولم يجب • وفطن عمرو الى الخطأ الذي ارتكبه بارسال الرسالة ، فان كتابتها على

الآلة الكاتبة تشى بخوف كاتبها من الاهتداء اليه بمعـرفة خطه ، مما يرجح معه أن خطه غير بعيد عن متناول التحقيق ، وما يثير ــ بالتالى ــ الشبهات حول المتصلين بالفقيدة ومن بينهم زملاؤها فى الادارة . هكذا استوجب خطؤه تفتيش مسكنه ــ ضمن مساكن الآخرين ــ وهكذا تم العثور على الآلة الكاتبة ، وعرف صاحب الرسالة والزجاجة والعلبة .

وقال :

ــ ولكنى برىء وكل كلمة فى الرسالة صادقة .

فقال الضابط ببرود :

ــ علمنا من بادىء الأمر بعلاقتك بالقتيلة !

فاعترضت مخيلته المزقة صورة عم سليمان ولكنه قال :

ــ اعترفت بذلك فى الرسالة ولكنى برىء ..

فقال الضابط بغموض :

ــ وأعجبنى خيالك !

فقال دون أن يتمعن معنى قوله :

ــ وأطلقتم المجرم الحقيقى !

ــ جميع من اشتبهت بهم أبرياء .

فتساءل بانكار :

ــ فمن القاتل اذن ؟

فأجاب الرجل بهدوء وثقة :

ــ لم يبق الا أنت !

الحجرة رقم ١٢



يتذكر مدير الفندق بصورة لا تنسى أنه جاءته ذات يوم امرأة لاستئجار غرفة لمدة أربع وعشرين ساعة ، وكان الوقت وقتذاك العاشرة صباحا • وحدجها الرجل بنظرة خاصة لندرة من يقصده من الجنس الآخر منفردا ، وأنه ليتذكر بصورة لا تنسى أيضا أنها تبدت لعينيه امرأة شديدة التأثير بقوة بنيانها ووضوح قسماتها وحدة نظرتها وهى تقف أمام الطاولة منتصبة القامة فى معطفها الأحمر وقلنسوتها البيضاء • ولم تكن تحمل بطاقة شخصية ، غير عاملة ولا متزوجة ، ولكنها على الأرجح مطلقة أو أرملة ، اسمها بهيجة الذهبى ، قادمة من المنصورة • سجل الرجل ما يلزمه من معلومات ثم عهد بها الى فراش تقدمها حاملا حقيبتها ، حقيبة كبيرة الحجم فوق المألوف ، فقادها الى الحجرة رقم ١٢ بالفندق الصغير •

رجع الفراش بعد نصف ساعة بوجه متعجب فسأله المدير عما وراءه فأجاب بأن المرأة غريبة الأطوار •

— ماذا تعنى ؟

أجاب بأنها طالبته بأن يطبق حشية الفراش والغطاء والملاءة وأن يودعها ركن الغرفة حتى يجىء الليل أما السرير نفسه فأمرت باخراجه من الحجرة معتذرة بأنها لا يغمض لها جفن

طالما أنه يوجد تحتها فراغ يتسع لشخص قد يختبىء فيه •
فقال لها ان مخاوفها لا تقوم على أساس وأن الفندق لم يقع به حادث واحد منذ نشأته ولكنها أصرت على طلبها فأذعن لمشيئتها ••

ــ كان عليك أن ترجع الى أولا •

فاعتذر بأنه لم يجد فى طلبها ــ رغم غرابته ــ خروجا على التعليمات الواجب الالتزام بها فى الفندق ، ثم واصل حديثه فقال انها امرته بأن يفتح صوان الملابس على مصراعيه وأن يبقيه كذلك فأدرك من توه أنها تخاف أن يغلق فى غيبة منها على غريب يتربص فصدع بأمرها فى تسليم باسم •

ــ العجيب أنها تبدو قوية وجريئة ••

وتفكر الرجل مليا ثم سأله :

ــ هل وهبتك بقشيشا ؟

ــ نصف جنيه بالتمام والكمال ••

ــ واضح أنها غير طبيعية ولكن لا أهمية لذلك ••

فقال الفراش :

ــ وكنت مارا أمام حجرتها المغلقة فى طريقى الى المغسل فسمعت وراء الباب صوتا يتكلم بحدة وحرارة ••

ــ ولكنها بمفردها •• ؟

ــ رغم ذلك كانت تتكلم بحدة ويرتفع صوتها تدريجيا ••

ـ كثيرون يفعلون ذلك ، ليس بالضرورة أن يكون مجنونا من يخاطب نفسه ..

فهز الرجل رأسه ولم ينبس فعاد المدير يسأله :

ـ هل وضح لسمعك شيء مما كانت تقوله ؟

ـ كلا ، عدا عبارة واحدة وهي « لا يهم » ..

وأشار المدير اشارة حاسمة اعرابا عن رغبته في انهاء الموضوع ثم قال للفراش وهو يمضي :

ـ مزيدا من الانتباه فهذا واجب على أي حال .

وقصف الرعد فنظر المدير الى السماء من نافذة زجاجية فرآها ملبدة بالغيوم ، وكان الجو شديد البرودة والمطر متوقعا بين آونة وأخرى . وعند تمام الواحدة بعد الظهر تلفنت له الحجرة ١٢ :

ـ ممكن أطلب غداء ؟

ـ لا يوجد مطعم بالفندق ولكن يوجد مطعم بالشارع ، طلباتك يافندم ؟

ـ تورلي ، أرز بالخلطة ، مع كيلو كباب مشكل ، تشكيلة سلطات ، رغيف بلدي مجمر ، عيش سراي ، برتقالتان ..

أمر المدير باحضار المطلوب ولكنه دهش لكمية الطعام المطلوبة ، خاصة اللحوم ، وهي تكفي وحدها لستة أشخاص .

وقال لنفسه انها مصابة بجنون الخوف والنهم .

ـ محتمل أن تغادر الفندق عصرا وسأجد فرصة لألقاء نظرة داخل الحجرة •

وجاء الطعام ، وبعد ساعة رجع خادم المطعم ليأخذ الصينية والأطباق • ولم يستطع المدير مقاومة رغبة ملحة فى النظر الى الأطباق ، وجدها فارغة تماما الا من بقايا عظام وصلصة متجلطة • وقرر أن يتناسى الموضوع كله ولكنه وجد المرأة ــ صورتها ونوادرها ــ تطارده وتلح عليه • لا يمكن القول بأنها جميلة ولكنها ذات سطوة كالجاذبية ، وبها شىء يخيف وأشياء تثير حب الاستطلاع والاذعان ، ومع أنه رآها اليوم لأول مرة الا أنها تترك انطباعا بالألفة التى لا تكون الا للوجوه المستقرة فى أعماق الذاكرة من قديم •

ورأى رجلا وامرأة قادمين نحوه ، وسأله الرجل :

ــ هل السيدة بهيجة الذهبى تقيم هنا ؟

فأجاب بالايجاب ، واتصل بالمرأة ، فطابت السماح للقادمين بالصعود الى حجرتها ، وكان واضحا أن القادمين من الصفوة ، من الناحية المادية على الأقل • واندفع الهواء فى الخارج بقوة رقصت لها القناديل المعلقة فى مدخل البهو الصغير • وسرعان ما قدم ثمانية أشخاص ــ أربعة رجال وأربع نساء ــ فتكرر السؤال :

ــ هل السيدة بهيجة الذهبى تقيم هنا ؟

وتم الاتصال وجاءت الموافقة فصعدوا بجلال ــ كانوا

على مستوى السابقين ــ الى الحجرة رقم ١٢ • أصبح الزوار عشرة ، أقارب من أسرة واحدة ، أو أصدقاء ، أو أقارب وأصدقاء ، ولكن لا شك أن بهيجة سيدة غير عادية •

ــ ترى لم اختارت فندقنا الصغير ؟

ودب النشاط فى كافتيريا الاستراحة وحملت الى فوق أقداح الشاى ، وشغلته بعض الوجوه فى المجموعة الأخيرة فظن أنه سبق له رؤيتها ، ولكنه قال لنفسه ان خير ما يفعله أن يغسل مخه من شئون بهيجة هانم ، وأنها غدا ستكون ذكرى من مئات الذكريات الضائعة التى يجيش بها صدر الفندق •

ورأى أمامه سيدة فى الخمسين غاية فى الرزانة والوقار ، سألت :

ــ هل السيدة بهيجة الذهبى هنا ؟

ولما أجاب بالايجاب قالت :

ــ بلغها من فضلك أن الدكتورة موجودة •

واتصل بالمرأة فسمحت لها بالصعود ، وأذعن لرغبة ملحة طارئة فسأل الدكتورة قبل أن تغادره :

ــ ما تخصص حضرتك ؟

فأجابت وهى تذهب :

ــ طبيبة مولدة •

لاحظ أنها قدمت نفسها بصفتها المهنية وبلا ذكر الاسم ،

فهل هى تزور المرأة بهذه الصفة ؟ •• هل المرأة تعانى من مرض نسائى ؟ •• أهى حبلى ؟ •• ولم يستطع الاسترسال فى أفكاره اذ جاءه رجل بدين قصير متجهم الوجه فقدم نفسه بصفته المقاول يوسف قابيل وطرح السؤال الذى يتكرر :

ـ هل بهيجة هانم الذهبى تقيم هنا ؟

وعقب الاتصال التلفونى المعتاد سمح للرجل بالصعود ، والمدير يودعه بابتسامة ساخرة حائرة • ورجع أحد فراشى الفندق من مشوار وهو يرتعد من البرد داخل جلبابه البلدى السميك فقال ان الظلام يتراكم فى أركان السماء وأن النهار سينقلب ليلا عما قليل ، فألقى المدير نظرة من النافذة الزجاجية ولكنه كان يفكر بامرأة الحجرة ١٢ ، المرأة الغامضة جلابة الضيوف ، وخيل اليه أن روحا نفاثة للاثارة والقلق تتسلل فى أنحاء الفندق مذ قدمت ، وأنه يشعر بها تتسلل الى زوايا نفسه موقظة بها أحلام المراهقة وأبهة الآمال الدنيوية الدسمة • وانتبه من استغراقه على صوت يسأل :

ـ بهيجة هانم الذهبى هنا ؟

رأى رجلا ضخما يرفل فى جبة وقفطان ، طربوشه جانح الى الوراء ، وبيده مظلة رمادية ، قدم نفسه قائلا :

ـ بلغها أن سيد الأعمى الحانوتى قد جاء •

انقبض صدر المدير ، انكمشت أعضاؤه ، لعن الرجل

والمرأة معا . ولكنه قام بواجبه فاتصل بها ، ولأول مرة يتلقى جوابا مخالفا ، فقال للرجل :

ـ انتظر حضرتك فى الاستراحة .

ـ ماذا جاء يفعل ؟ ، ولم لا ينتظر فى الخارج ؟ ، لقد عمل الفندق زهاء نصف قرن فلم يشهد مثيلا لما يحدث اليوم ، وأخوف ما يخاف أن يهطل المطر فيضطر الفندق الى ايوائهم وقتا مجهول المدى ، وبخاصة رجل الموت ذاك ؟ ! .

وجاء زوار جدد ، جاءوا متفرقين ولكن تباعا ، صاحب معرض أثاث وبقال وقصاب وصاحب محل عطور وأدوات زينة وموظف كبير بمصلحة الضرائب ورئيس مؤسسة وصحفى معروف وتاجر جملة للأسماك وسمسار شقق مفروشة ووكيل وشخصية عربية من أصحاب الملايين ، وظن المدير أن المرأة ستنقل الاجتماع الى الاستراحة ولكنها أشارت بالسماح لهم بالصعود فصعدوا واحدا فى اثر واحد . وحملت كراسى جديدة ومضى الفراشون بالشاى ، وتساءل المدير ترى كيف يجلس الزائرون ، هل يربطهم تعارف سابق ، وماذا جمعهم على وجه التحديد ؟ . واستدعى شيخ الفراشين وسأله عن ذلك فأجاب الرجل :

ـ لا علم لى بالداخل ، الأيدى تتسلم الكراسى والشاى من زاوية الباب ثم تغلقه فورا ..

فهز الرجل منكبيه وقال لنفسه انهم ما داموا لا يتشكون فلا مسئولية على •

واذا بسيد الأعمى الحانوتى يقبل نحوه فيقول :

ـ أرجو أن تذكر الهانم بأنى فى الانتظار !

فقال المدير بجفاء :

ـ وعدت بأن تستدعيك فى الوقت المناسب •

ولم يتحرك الرجل فتلفن للمرأة ليتخلص منه ثم ناوله التليفون بناء على رغبتها فيما بدا ، فقال سيد الأعمى :

ـ يا ست هانم العصر فات ونهار الشتاء قصير ••

وأصغى الى السماعة مليا ثم أعادها ورجع الى الاستراحة غير مرتاح ، والمدير يلعنه من صميم قلبه ، ويحمّل المرأة مسئولية استدعائه الى الفندق ، ويرمق باب الاستراحة بنفور وتقزز • ونزل بعض النزلاء فى طريقهم الى الخارج ، فأبدوا للمدير ملاحظات عن الحجرة ١٢ المقلقة للراحة فقال الرجل معتذرا :

ـ يوجد بها زوار وسيذهبون عاجلا أو آجلا ، لن يبقى أحد منهم فى الليل ••

بات يخشى أن تدفعه مسئوليته الى الصدام معهم وهم من الصفوة القوية ، وضاعف من كآبته صفير الرياح فى الخارج وروخ الأسى التى تغشى الطريق • ورغم ذلك تراءى عند

مدخل الفندق جماعة من الرجال والنساء ، أقبلوا نحوه فى معاطفهم فغاص قلبه فى صدره ، وبادرهم وهو لا يدرى :

ـ بهيجة هانم الذهبى ؟

فضحك أحدهم وقال :

ـ أبلغها من فضلك أن مندوبى جمعية احياء التراث قد جاءوا •

واتصل المدير بالمرأة فلما طلبت السماح لهم قال لها :

ـ عددهم عشرة يا هانم وتحت أمرك فى الدور الأرضى استراحة تتسع لأى عدد !

ـ ولكن فى الحجرة متسعا !

وصعد المندوبون والمندوبات والرجل يهز رأسه فى حيرة • سيقع الصدام عاجلا أو آجلا ، سيتفجر غضب السماء فى الخارج ، سيتمخض ذلك التكتل الشاذ فى الحجرة ١٢ عن شىء غير سار • وحانت منه التفاتة نحو الاستراحة فرأى سيد الأعمى يزحف نحوه فنقر بأصابعه على سطح الطاولة بعصبية ، أوصله بالمرأة قبل أن يفتح فاه ، سمع شكواه ثم سمع اذعانه ، وتركه يعيد السماعة بنفسه ، ولكن الرجل قال له وهو يهم بالذهاب :

ـ الانتظار بلا عمل ممل جدا ••

فغضب المدير ، وكاد يوبخه لولا أن المرأة اتصلت به طالبة ايصالهم بالمطعم ، واستمرت المكالمة دقائق قبل أن تنقطع ،

وتساءل هل يبقون حتى العشاء ؟ ، وأين يتناولون عشاءهم ، كم يود أن يعاين الحجرة بحالتها الراهنة ، انه منظر يفوق الخيال ، منظر جنونى بلا أدنى ريب •

ولم يقف الطوفان عند حد فجاء نفر من أساتذة الجامعة ورجال الدين ، أمست المناقشة عقيمة ، تركهم يصعدون ، بدا الأمر مزاحا كابوسيا ، وجاء رجل غامض فصعد دون أن يمر به وقد ناداه فلم يلتفت اليه ، وتبعه فراش ولكنه توقف عندما رآه يدخل الحجرة ١٢ • وشعر المدير بأنه وحيد وبأنه يفقد سيطرته القانونية على المكان ، وبأن شيطان الأحلام البهيمية يطرق بابه بعنف • وفكر بأن يشاور شيخ الفراشين ولكن ظهر له رجل ما ان رآه حتى تشهد فى ارتياح ، تصافحا وهو يقول للقادم :

ــ جئت فى وقتك يا حضرة المخبر •

فقال المخبر بهدوء :

ــ أطلعنى على السجل ••

ــ تحدث أمور غريبة هنا •

راح الرجل يراجع بعناية الأسماء ويدون بعض الملاحظات فقال المدير :

ــ أراهن على أنك جئت من أجل الحجرة ١٢ •

ــ هه ؟

ــ الأمور تجرى فى شذوذ جنونى •

ـــ كل ما يقع ضمن الطبيعة فهو طبيعى !

ثم غادره وهو يقول :

ـــ اذا طلبنى التليفون فانى فى الحجرة ١٢ !

ذهل المدير ، ولكنه اطمأن نوعا ما فى الوقت نفسه ، فما يحدث انما يحدث بعلم الحكومة وتحت سمعها وبصرها ، وتذكر أنه فكر بمشاورة شيخ الفراشين ، وهم بالضغط على الجرس عندما رأى سيد الأعمى زاحفا نحوه ففقد أعصابه وصاح به :

ـــ قالت لك أن تنتظر حتى تستدعيك .

فابتسم الرجل بخنوع المعتاد للانتهار وقال :

ـــ ولكن الانتظار قد طال ..

ـــ انتظر بلا مناقشة وتذكر أنك فى فندق لا قرافة !

فرجع الرجل متصبرا ، وتذكر المدير شيخ الفراشين فاستدعاه وسأله :

ـــ كيف تجرى الأمور فى الحجرة ١٢ ؟

ـــ لا أدرى يا سيدى ولكنها تضج بالأصوات ..

ـــ كيف يتواجدون معا وهى لا تتسع لهم ولو جلس بعضهم فوق بعض ؟

ـــ علمى علمك ولكن على أى حال فان الضابط بالداخل أيضا ..

وذهب الرجل فنظر المدير من النافذة فرأى الليل جاثما فى

الفضاء ، وقد أضاءت المصابيح فشعت أنوارها وانية خلال الجو المشحون بالرطوبة العاصف بالرياح المزمجرة ، وجاء طابور من خدم المطعم يحملون الصوانى المكتظة بالأطعمة ، فازداد عجبه ، وقال لنفسه انه لا يوجد بالحجرة الا خوان واحد ، فأين تصف الأطباق ، وكيف يتناولون الطعام ؟ •
وأخبره أحد الفراشين أن باب الحجرة لم يعد يفتح ، وأن الأطعمة أدخلت من شراعة الباب ، وأن الضحكات الصاخبة تجتاح الدور كله ، وأصبح المشهد كله يعز على التصديق •

ورجع الفراش بعد نصف ساعة ليؤكد له أن القوم يسكرون ، فقال له :

ـ لم أر زجاجة واحدة !

ـ لعلها هُرِّبت فى الجيوب ، انهم يغنون ويصرخون ويصفقون ، تلك حال سكر وعربدة ، وفسق أيضا فالنساء هناك لا يقلون عن الرجال عددا ••

ـ والمخبر ؟

ـ سمعت صوته يغنى « الدنيا سيجارة وكاس » ••

وقصف الرعد فى الخارج فقال المدير لنفسه « جائز جدا أنى أحلم وجائز أنى جننت » • واذا بجماعة من عامة الشعب ـ تنطق وجوههم وملابسهم بشعبيتهم ـ قدموا ، وسأل سائلهم :

ـ هل السيدة بهيجة الذهبى تقيم هنا ؟

فابتسم المدير يائسا ، واتصل بالمرأة ، فرجته أن يجعلهم ينتظرون فى الاستراحة وأن تقدم لهم المشروبات ، فأشار الرجل لهم نحو الاستراحة فأمر بتقديم الشاى لهم ، فامتلأت الاستراحة وازداد سيد الأعمى قلقا • وجعل المدير يبتسم بائسا ويغمغم :

ـ لم يعد الفندق فندقا ، ولم أعد مديرا ، لم يعد اليوم من الزمان ، فليرقص الجنون ما شاءت له اللحوم والخمور ••

وبدأ تساقط المطر ، وأرعدت السماء ، ولمع الأسفلت عند مدخل الفندق بأضواء المصابيح ودغدغة المطر ، وتتابع دبيب الأقدام ، وارتفعت صيحات غلمان مهللة ، ولجأ عابرون الى عنق المدخل ، وتوالت الضربات المرجفة فوق زجاج النافذة • غادر مكانه الى مقدم المدخل فقلب وجهه فى السماء المظلمة ثم نظر الى الأرض فرأى السيل المنهمر ينصب عليها كالحصا ويجرف منحدراتها كالطوفان • لقد تلبد واحتدم ثم انفجر •

ـ انه مطر لم يسقط نظيره منذ جيل على الأقل •

وتذكر سيلا شبيها بهذا حفر ذكراه فى رأسه منذ صباه ؛ تذكر كيف انقطعت المواصلات وسدت الحوارى وغرقت الحجرات تحت الأسقف المتهرئة • ورجع الى مكانه فالتزمه حرصا على السجلات والخزانة ولكنه أصدر أوامره بتشديد المراقبة فى الحجرات وفوق السطح • واستدعى شيخ الفراشين وسأله :

ـــ ما أخبار الحجرة ١٢ ؟

فلوى الرجل شفتيه وقال :

ـــ تواصل الغناء والضحك ، انهم مجانين ..

ولمح على باب الاستراحة سيد الأعمى فصاح به بأعلى صوته :

ـــ ارجع الى مكانك .

استأذنه الرجل باشارة من يده فصاح به مرة أخرى :

ـــ ولا كلمة ..

وجعجع الرعد كانفجار القنابل وانهل المطـــر فى سرعة وغزارة جنونيتين فقال لنفسه بقلق ان الفندق قديم لم يشيد بالخراسانة المسلحة ؛ وأن الليل ينذر بالمتاعب .

وجاءه فراش فقال :

ـــ تصاعدت الشكوى من الحجرة ١٢ من رشح السقف والبلل !

فقال بحنق :

ـــ سكت الغناء والضحك ؟ .. فليغادروا الحجرة !

ـــ ولكنهم لا يستطيعون !

فصرفه واستدعى رئيس الفراشين وسأله فيما قال الرجل فقال :

ـــ الحجرات كلها ترشح ، سأجند الفراشين لسد الثغرات فوق السطح بالرمال ..

ـ والحجرة ١٢ ؟

ـ لقد انحشروا ، انزنقوا ، امتلأت بطونهم فانتفخت ، تعذر فتح الباب ، تعذرت الحركة ..

اجتاح الهياج الكونى الفضاء فى الخارج ، أما فى الداخل فقد دبت حركة نشاط شاملة وانطلق الفراشون بأكياس الرمل . وحدثت مفاجأة غير متوقعة ، اذ هب المنتظرون فى الاستراحة متطوعين للاشتراك فى العمل . راقب المدير ذلك بارتياح ، وارتاح بصفة خاصة لتخلف سيد الأعمى .

وبعد نصف ساعة رجع شيخ الفراشين ليطلعه على سير العمل ، قال :

ـ انهم يعملون بهمة عالية ..

ثم بعد تردد :

ـ أما أصحابنا فى الحجرة ١٢ فحالهم سيئة ، وهى تزداد بتقدم الوقت سوءا على سوء ..

وغضب المدير . عصف به الغضب وكأنما عصف به فجأة . عصف به بعد توتر عنيف هصره طيلة اليوم . تملكه الغضب أعصابا ولحما دما . جن واندفع ينشد المزيد من الجنون . صاح بشيخ الفراشين :

ـ اسمع ، احفظ ما أقول ..

فحملق الرجل فى وجهه بخوف طارىء فصاح بتصميم :

ـ أهملوا الحجرة ١٢ بجميع من فيها !

ـ سيدى ، الرجال يصرخون والنساء يبكين ••

فزمجر كالوحش :

ـ ركزوا على السطح فوق حجرات النزلاء أما الحجرة ١٢ فأهملوها بجميع من فيها ••

تردد الرجل مقدار ثانية فصاح وهو يزداد توحشا :

ـ نفذ تعليماتى حرفيا ، وبلا تردد ••

والتفت نحو النافذة الزجاجية ينظر الى الخارج فرأى الزوبعة تتلاطم فى قلب الليل وتزداد عنفا ولكنه كان قد تخفف من عبء ثقيل واسترد الثقة وصفاء الذهن ••

الطبول



دق جرس المنبه فى رنين متصل فدبت فى الأسرة حركة شاملة • ثمة تثاوب هنا وهناك يند وسط همهمات كطنين النحل وضحكات طافحة بالبشر وتأوهات مرحة • وفتحت النـوافذ فتدفق الفجر الغامض متسربلا بنسيم ندى مفعم بشتى الطيوب وأنفاس الطبيعة النقية • وارتفع صوت القائد دسما واضح النبرات يقطع بأنه سبقنا الى الاستيقاظ منذ أمد وتأهب لاستقبال اليوم الخطير ، قال :

ــ السرعة والنظام والجد ، لديكم ثلث ساعة حتى تجتمعوا حول مائدة الافطار •

وانتشرت الحركة فى نشاط بهيج • أقيدت الأنوار فى المغاسل ، طرقعت الشباشب فوق البلاط ، سالت المياه من الصنابير ، وهدرت السيفونات ، وأزت الحلاقات الكهربائية •

ــ الفجر يبشر بجو طيب •

ــ يجب أن نقطع شوطا ملحوظا قبل أن ترتفع الشمس •

ــ لكن الظهيرة آتية والصيف لا قلب له •

بسرعان ما امتلأت الكراسي الخشبية حول المائد المستطيلة ببهو الطعام • استقرت الجاكتات الكاكية والبنطلونات القصيرة فوق الأجساد الرشيقة • عقد كل حمالة صفارته حول عنقه

وأرسى عصاه الى طرف المائدة جنب زمزميته وحقيبته • وصب الشاى فى الأقداح وتخاطفت الأيدى الفطائر والجبن والعسل الأسود • وتتابع التمطق فى سرعة تنذر بتوقعات متربصة • والحق أن القائد لم يمهلنا طويلا ، كأنما أراد أن يمتحن مرونتنا أو أن يذكرنا بسلطاته منذ البدء ، فنفخ فى صفارته مقدار ربع دقيقة • نهضنا عجلين ، ركّبنا الحقائب فوق الظهور ، وعقدنا الزمزميات بالأكتاف ، وتناولنا العصى ، وهرعنا الى الفناء • انتظمنا طابور طويل فى ظلام شامل عدا شفافية لا تكاد ترى فى الأفق الشرقى • ومثل شبحه أمامنا بقامته الطويله ومضى يقول :

ــ لتكن كل رحلة جديدة خيرا من سابقاتها •

فقلنا فى نفس واحد :

ــ آمين •

فعاد يقول :

ــ لنكن مثالا طيبا للآخرين •

فكررنا فى صوت واحد :

ــ آمين •

ــ ولنستفد من كل خطوة وكل تجربة •

ــ آمين •

ــ سيروا على بركة الله •

ــ آمين •

ونفخ فى الصفارة والديكة تصيح فتكونا فى أربعات ، واتخذنا خطوات « محلك سر » حتى احتل مكانه على رأس الطابور . ثم بدأ السير فسرنا وراءه على دقات الطبول ، وتبعتنا على الأثر عربة يجرها جواد تحمل المطبخ والمستشفى . سلمنا الفناء الى ممر طويل ضيق محصـــور بين جـــدارين مرتفعين تفوح منه رائحة الكلس وعطن البول وتظلل نهايته سعف نخلات مغروسة فى الجانبين . شاب مشيتنا الرياضية حذر شديد لما توقعناه من وجود روث دواب أو قاذورات آدمية اذ أنه رغم الحيطة والتفتيش يتسلل الى الممر فى هدأة الليل أناس لممارسة حرياتهم بلا حياء . سرنا فى حذر حتى خرجنا الى الخلاء فلفحتنا نسمات نقية مطلولة . ولم نكد نقطع خطوات حتى ترامى الينا صوت السواق وهو يحث الجواد على السير ويفرقع بسوطه فى الهواء . وتنبه قائدنا الى ذلك فصاح بصوته الدسم :

ـــ قف ..

فضربنا الأرض متوقفين فقال بنبرة آمرة :

ـــ ١ و ٢ يذهبان للاستطلاع وتقديم ما يلزم .

انفصل الزميلان من الطابور فرجعا الى موقف العربة .. أدركنا من حوارهما أن حجراً اعترض العجلة اليمنى وأنهما يتعاونان على زحزحته . وتساءل قائدنا محنقا :

ـــ متى يبلغ معسكرنا كماله المنشود ؟!

وعاد الزميلان الى الطـابور فنفخ القائد فى صـفارته واستأنف الطابور سيره • سرنا أشباحا ذائبة فى ظلام ، وفى السماء نجم واحد• وكنا نحب ظلمة الفجر ، لأنها سريعة الزوال ، ولأننا نطمئن الى الاختفاء فى غلالتها فنخرق تقاليد الطابور الصارمة بالمداعبات والملاعبات الخفية ، سـعداء بشقاوتنا وعبثنا كاتمين ضحكاتنا فترتعش فـوق الشـفاه بلا صوت • فى ظلمة الفجر يتلقى سيىء الحظ ضربة عصا فى ساقه أو قرصة فى ذراعه أو نواة نبقة فى قفاه ، ولما كان الفاعل مجهولا فانه ينتقم من أيّ كان وبأى وسيلة تتفق له • لم تكن تلك الشقاوة مريحة ولكنها كانت متعة محبوبة ، ولا تتم الرحلة الا بها ، ولذلك كنا حريصين على احترام سريتها لنضمن استمرارها • ونهنأ ـ رغم انزعاجنا ـ بها ، فالجدية المثالية الواجبة شعار نردده ونلتزم به ولكن يبدو ألا مفر من التمرد عليه بين الحين والحين • وما يدرى تكوين من تكوينات الطابور الرباعية الا ورشاش سائل يبلله فى مواضع متفرقة من أجسام أصحابه • وتبين لهم من رائحته أنه بول ! • كاد النظام يختل • وضاعت الضحكات المكتومة فى هدير غاضب لم يتوقعه أحد • تجاوزت الدعابة حدود الاحتمال وانفجر صوت خشن بلا مبالاة :

ـ عليكم اللعنة ••

فصاح القائد غاضبا :

ــ قف •

توقفنا عن السير • إنقلبت الدعابة علينا هذه المرة وأنذرت بالنكد • وتساءل القائد :

ــ من الوقح ؟ !

فصاح الآخر متحديا :

ــ كلب بال علينا •

فصرخ القائد :

ــ الويل لكم •

ولكن سبقته الأحداث فندت صرخات واختلطت أشباح ونشبت معركة عمياء • تبودلت اللكمات والركلات واللعنات ومضى القائد يهدد وينذر فى الهواء • اشترك كل واحد منا فى المعركة ، هاجما أو مدافعا ، بلا حساب ولا حذر وكأننا نقاتل المجهول فى الأركان الأربعة • اندثر لحظتئذ الود الجامع بيننا وتلاشت روح الزمالة العتيدة ، وحلت محلهما وحشية كاسرة تنفث حقدا وشهوة طاغية للأذى ، كأنها قوة مدمرة تفجرت فى قلب الظلام • تواصل الضرب بلا رحمة وصمت قائدنا كأنما قد ترك لأيدينا وأرجلنا مهمة انزال العقاب الشامل بنا • وما ندرى الا والظلمة تخف وتتهافت ، ومعالم الدنيا تطل علينـــا من حولنا ، ورقعة الأفق الشرقى تبتسم ببهجة الضياء • عند ذاك تراءى المتعاركون ، رأى كل وجه زميل أو صديق فعقد الحياء أيدينا وتطايرت انفعالاتنا السوداء وتراجعنا بوجوه أسيفة

وقلوب منكسرة ، وجعلنا نجفف عرقنا ونضمد جراحنا ونتبادل نظرات حسيرة ، متجنبين النظر نحو قائدنا الواقف كتمثال للغضب والازدراء . وساد صمت ثقيل مشحون بالندم . وتلقينا أول شعاع للشمس بوجوه كالحة .

وراح القائد ينقل عينيه من شخص لآخر ، ثم قال :

ـ بداية على أى حال جديرة بكم .

لم ينبس أحد بكلمة . ولا انبرى أحد للدفاع يستوى فى ذلك الظالم والمظلوم . وعاد القائد يقول :

ـ ان زيكم الرفيع ليخجل منكم .

وهز رأسه فى أسى ثم تساءل :

ـ هل لدى المذنب منكم الشجاعة للاعتراف ؟

ولما لم يسمع صوتا قال :

ـ ليس من مبادئنا الغاء رحلة بدأناها ولكن لن يمر ذنب بلا عقوبة تناسبه .

مضى الى موقفه ، نفخ فى الصفارة ، هوت المطارق على الطبول ، تحرك الطابور فى ضوء الصباح الباكر . انتقلنا من الصحراء الى المدينة فقابلتنا طلائع العمال والباعة . وتبعا لتقاليدنا رحنا ننشد الأناشيد متناسين المعركة وآلامها . ولم يكن شىء يؤثر فينا مثل أناشيدنا الجميلة المتغنية أبدا بالبطولة والمجد والأخوة ، فسحرها يخاطب منا القلوب والسرائر . ومر بنا السابلة بلا اهتمام ، وقليلون من تابعونا بنظرات محايدة ،

أما الغلمان الذين يهرعون وراءنا فلم يكن قد استيقظ منهم أحد بعد • وزالت آثار المرارة تماما ، وانتصر الشباب بقوته الخارقة ، وأنعشتنا الأناشيد ، فعدنا أهلا للرحلة الطويلة الشاقة أمامنا • وسيطر علينا الايمان بما نفعل وبما نقول ، بالمثل التى نستظل بها ، والمجد الذى نمضى اليه ، والقوة التى سنحقق بها المعجزات • وكنا سعداء ، رغم الجهد المتوقع والنظام الصارم والعقوبة المتربصة كنا سعداء • وسرنا وسرنا ، وأنشدنا وأنشدنا ، على دقات طبول لا تتوقف ، حتى نفخ القائد فى الصفارة فتوقفنا وسط الضحى • وهتف القائد بوجه لم يزايله الغضب :

ــ استراحة •

غسلنا وجوهنا فى مقهى قريب ثم قصدنا العربة فتناولنا شراب الليمون وبعضا من البسكوت • وكان الطريق غاصا بالمارة والسيارات والعربات ، وحرارة الشمس تحرق الرءوس وتستدر العرق • وتبادلنا الأحاديث فى صفاء كأن لم تكن بيننا معركة ، وتذكرنا ملابساتها بقلوب ضاحكة ، ولكننا لم نخل من قلق من ناحية عواقبها •

ــ هل تمر بسلام ؟

ــ بعيد ذلك كل البعد •

ــ حبس انفرادى أو صيام نهار كامل •

وطوينا الموضوع بقرفه لنواجه ما هو أهم فى حاضرنا ،

فهدف الرحلة يظل مجهولا لا ينبىء عنه قائدنا حتى نستدل عليه من خط السير • وكنا معسكرين عند مشارف الميدان ، ولكن الميدان مفترق طرق ملىء بالاحتمالات •

ــ أنتجه جنوبا أم نمضى شمالا ؟

ــ الجنوب يعنى الأهرام •

ــ أهرام الجيزة أم سقارة أم دهشور ؟

ــ ولا تنس الفيوم •

ــ والشمال يعنى هليوبوليس أو عين شمس •

ــ وهناك الصحراء فى الجنوب والشمال معا •

ــ وهى أسوأ الاحتمالات •

ونفخ القائد فى الصفارة فتوالت دقات الطبول كالنداء الملح فهرعنا الى الطابور • وما كدنا نتوسط الميدان حتى أدركنا أننا نتجه نحو الجنوب ، فعرفنا الهدف بلا تحديد ، ولن يتحدد حتى نبلغ هضبة الأهرام • مضينا بأقدام نشيطة وحيوية رائعة ، تستغرقنا الأناشيد فلم نشعر بمرور الوقت • لذلك دهشنا عندما دعينا للتوقف لتناول وجبة الغداء وتبين لنا أن الساعة تمت الثانية بعد الظهر • عسكرنا على حافة حقل مزروع بالجرجير • نزعنا الأحذية وغسلنا أقدامنا فى جدول ماء • فرشنا الحصر وجلسنا لنتناول الغداء بعد أن جاء كل منا بتموينه من العربة وهو عبارة عن طبق يحوى بامية وقطعة من الضأن ومغرفة من الأرز وموزة • وأنسانا تناول الطعام

همومنا الصغيرة كما أنسانا الوقت فأثملتنا لذته الموشاة بأطايب الأحاديث والنوادر • ولما فرغنا من الطعام استلقينا على ظهورنا لنستمتع بالراحة فى الفترة القصيرة المخصصة للقيلولة • وداعبنا النعاس ونحن مستسلمون لأحلام اليقظة ، وكدنا نستسلم للنوم لولا أن همس هامس :

ــ انظروا ••

تحولت الأنظار الى الحقل الذى يغوص تحت مستوى الطريق بمتر فرأينا زميلا يكاد يتوارى وراء عربة مقلوبة وهو يحتضن كائنا لم نره ولكنا رأينا جانبا من فستانه هفا به الهواء فتحرك كالعلم •

ــ أى جرأة !

ــ سيجلب لنا متاعب جديدة •

وتطوع زميل للذهاب اليه لتحذيره • وسرت شهامة التطوع الى آخرين فمضوا فى أثره • وتطلعت الرءوس الى العربة المقلوبة باهتمام واشفاق وتوتر ، وبحثت أعين عن القائد حتى عثرت عليه نائما على سريره السفرى وراء عربة التموين • رأينا الزملاء وهم يتحاورون عند العربة المقلوبة ولكننا لم نسمع كلمة مما يدور فقال أحدنا :

ــ انهم يقنعونه بالعودة •

فقال آخر ضاحكا :

ــ أو بالاشتراك معه !

وجرت الفتاة الى مبنى من البوص غير بعيد فاختفت داخله دقيقة ثم ظهرت مرة أخرى فى مدخله وهى تتوسط عددا من الفتيات ! • وهرع الزملاء الى مبنى البوص فدب نشاط محموم فينا جميعا ، وثبنا قائمين ، وزحفنا نحو المبنى كجيش من المجانين • وكانت الشمس تصب على المبنى دفقات حامية من أشعتها فيكاد أن يشتعل ولكن لم يبال أحد بالحر ولا بالجو الخانق ، وفاح المكان برائحة عرق آدمى حريف ، واضطربت أركانه بالصحة والعافية وأنفاس الشباب الملتهبة ، وشحنت بالعربدة المكتومة والزفرات الضاحكة والأطوار المستهترة • وفى حمأة الطرب المشبوب تردد صوت ماجن بغناء ، رقص مستهتر متهتك ، واشتبك اثنان فى معركة مازحة • وعدنا واحدا فى اثر واحد ، وارتمينا فوق الحصر مستسلمين لراحة عميقة • وما لبثت أن دوت الصفارة وتتابعت دقات الطبول • قمنا ننفض عن أنفسنا الكسل • انتظمنا فى الطابور • لمحنا القائد متجهم الوجه فلم ندر ان كان تجهمه بسبب ذنبنا الأول أو أنه فطن أيضا لذنبنا الثانى ولكنا كنا أبعد ما يكون عن الندم • وهمس صوت :

ـــ نجونا بمعجزة •

فقال آخر :

ـــ أو علينا أن نتوقع عقوبة مضاعفة •

وأخذنا فى السير • بعزائم قوية مضينا • أسعفتنا روح

التحدى والصبر • وقلنا لأنفسنا انه مهما كان ومهما يكن ومهما سيكون فليس أخلد من البهجة والمسرة والمرح • ولبثنا على تلك الحال ساعة ونصفا أو ساعتين • ورغما عن ارادتنا سلمنا بأن الشمس عنيفة ، بل أعنف مما تصورنا ، بل هى فى الواقع لا تحتمل • وتصبب العرق حتى بلل ملابسنا ، وضاعف من تذمرنا احساسنا بعدم طهارته • الحق أن التعب بدأ يزحف على عضلاتنا وأعصابنا مبكرا بالقياس الى الرحلات الســابقة • وكلما تقدمنا اشتدت وطأته وعنفت ضرباته أما الحر فأصبح خانقا قاتلا • كلا لم نذق هذا الجحيم من قبل ، ولم تخر قوانا كما خارت اليوم • وتراخت أوتار أصواتنا وهى تنشد الأناشيد ، ولأول مرة نشعر بوزن الوقت وهو يتمطى فوق مناكبنا • تغير كل شىء ، حال لونه وفسد طعمه ، ففتر حماسنا ثم خمد • حتى الأناشيد تبدت لنا رتيبة مكررة فاقدة المعنى والروح فخجلنا من ترديدها • وخيل لنا أننا موضع سخرية المارة والمنتظرين تحت مظلات الباص • ولم تقف مشاعرنا المدمرة عند حد فأوشكت أن تلتهم الرحلة نفسها التى بدت طويلة بلا نهاية • معذبة بلا رحمة ، خالية من أى معــنى أو عزاء ، غير جديرة بالطقوس التى تحكمها والنظام الذى يضبطها والآمال المعقودة عليها • وقائدنا نفســه لاح قائدا بلا قيادة ولا جيش ، مضحكا فى غضبه ، هزيلا فى عنفه • ألحت علينا تلك الأفكار ، وكلما اشتد ارهاقنا اشتدت الحاحا

وعنفا ، ونفد صبر البعض فتوقف عن الانشاد أو جعل يحرك
شفتيه بلا صوت ، وجن البعض الآخر فجازف بالخروج من
الطابور مع علمه بما يعنيه ذلك من فصله من الفريق مجللا
بالعار منبوذا من الروح الرياضية . وهى فضيحة لم تغب
عنا عواقبها ، وآثارها البعيدة فى نفس القائد والمشرفين هناك
فى المدرسة ، ولكنها فى الوقت نفسه ميزتنا بشيمة الصبر
وأملتنا فى تخفيف العقوبة ، وان لم تغير شيئا من فتورنا
وارهاقنا وحال الخذلان التى ركبتنا ، وتتابع السير والغناء ،
ولم يعد شيء يحتفظ بعنفوانه الا دقات الطبول وصلابة قائدنا
غير المبالية ، وأقران يعدون على أصابع اليد مضوا بهامات
مرفوعة وعضلات مشدودة يرددون الأناشيد بحماس وايمان
حتى أثاروا الحنق والازدراء . وعندما لاحت لأعيننا الأهرام
الشامخة كانت الشمس قد مالت نحو الغرب ، فوهنت حدتها ،
ودبت فى الجو نسمة جعلت تلاطفنا فى استحياء . وأخذ
الطريق فى الارتفاع فتضاعف ارهاقنا واشتدت آلامنا وتداعت
أصواتنا . وبلغنا سطح الهضبة وقد اختفت الشمس وتدثر
الكون بغلالة داكنة هادئة رددت أنفاسا ضعيفة كأنها أنفاس
شيخوخة فانية . ودوي صوت الصفارة فتساقطنا من الاعياء
ونحن نتأوه بأصوات غير مبالية . خمنا أننا سنمكث تحت
الهرم ساعة أو أكثر قبل أن نستأنف السير الى معسكرنا الموغل

فى الصحراء ولكن قائدنا المنتقم قال بصوت سمعه الجميع :

ــ لديكم ربع ساعة كاملة !

ذهلنا ! • تبادلنا النظر فى صمت ونحن نعلم أن الأوامر لا تناقش • ولم نضيع الوقت فى التحسر العقيم • ولم يكن بد من التضحية بالراحة فقمنا لابتياع ما يلزمنا فى مقامنا الأخير فى حدود ما تسمح به اللوائح • ومدة الاقامة مجهولة لا يعلم بها الا القائد ولكنا آثرنا الأخذ بالأحوط • اشترينا ما نحتاجه من سجائر وصابون وفاكهة وقوارير المياه الغازية • ضاع وقت الراحة فى الشراء والمساومة وتنظيم السلع • وما فرغنا من ذلك حتى عادت الصفارة تدوى ودقات الطبـول تدق بلا نهاية فانتظمنا فى الطابور الرهيب ، يحمل كل منا سلة موز على يد وبطيخة على اليد الأخرى حاشيا جيوبه بالعلب والقوارير فضــلا عن أدواته الأصلية كالعصـــا والزمزمية والحقيبة • وواصلنا الرحلة من غير أن ننال قسطا من الراحة ، بعضلات منهكة وأعصاب متوترة وأنفس غاضبة • وضاعف من متاعبنا مقاومة الرمال الغزيرة لأقدامنا واختفاء معالم الدنيا فى جوف الظلام الهابط • استحالت أصواتنا عــواء محشرجا ، وتقلصت عضلاتنا من حدة الآلام ، فنسينا نسيانا تاما مسرات الرحلة كأنها لم تكن وتمنينا الموت • وداعبنا أمل أن يعدل القائد عن خطته وأن يقنع بما أنزل بنا من عقاب

صارم ، فتسترد الرحلة بهجتها المأمولة وأحلامها الضائعة ولكنه واصل سيره بلا مبالاة ، ولم يكتف بذلك فصاح بصوت كالرعد :

ــ حركة سريعة ، ابتدىء !

لم نصدق بادىء الأمر آذاننا ، ثم بهتنا من شدة المباغتة . الحركة السريعة ندعى اليها عادة فى مطلع الرحلة وفى ضوء النهار ، أما أن تفرض علينا قبيل النهاية فشىء خارق وغير انسانى يراد به القضاء علينا . والى ذلك فهى نوع من الوثبات المتلاحقة فى صورة جرى متقارب الخطو يقتضى استخراج البطاريات من جيوبنا الخلفية لتنير لنا الطريق خشية أن نتعثر فى نقرة أو نرتطم بحجر ، فكيف يتاح لنا ذلك مع حملنا الثقيل وتعبنا الأليم ؟ ! . ولا فرصة للتمرد فليس أمام الهارب من الطابور فى ذلك المكان الا الضياع فى الصحراء والظلام ، فلا مفر من الانصياع والاذعان . ومضى القائد يثب ، فاندفعت دقات الطبول فى تلاحق سريع . وشرعنا فى الحركة السريعة . جربنا أن نمارسها مع الاحتفاظ بأحمالنا ومع الاستغناء عن البطاريات ولكن بدا ذلك ضربا من المحال . لا مفر من التخلص من أحمالنا العزيزة ، لا مفر . حتى لو تعرضنا للكآبة والقرف والحرمان ، لا مفر . وتخلصنا من البطيخ والسلال ، تركناها لقى فى الصحراء للحشرات والهوام . وأخذنا نثب بسيقان متهافتة وعزائم خائرة وقلوب باكية . مضينا يلفنا الظلام على ضوء البطاريات المتحركة فى

أيدينا كأننا نجوم متداعية تبعث باشعاعها الأخير قبل اندثارها النهائى • وتذكرنا بحسرة ساخرة فرحة الاستيقاظ وبهجة الأناشيد ودعابة الطريق ونشوة الحقل ومتعة الشراء ، تذكرنا ذلك كله بذهول ، ونحن نتقدم شبه عرايا منهوكى القوى الى معسكرنا الرابض فى أعماق الخلاء • وتقدمنا كما قدر علينا ؛ وحتى الأسف لم يعد يجدى ، ولم نهتم كذلك بما اذا كان ينتظرنا عقاب جديد أم سيكتفى بما حل بنا • وتاقت أنفسنا للنوم باعتباره الشفاء الأخير لجميع الآلام • وأخذت دقات الطبول تبطىء رويدا رويدا ايذانا بتغيير الحركة وتقارب المعسكر • وعدنا تدريجيا الى سيرنا العادى ، ومن شدة الجهد لم نجد حاجة لتبادل همسة واحدة فغاص كلٌ فى وحدته • وما ندرى الا ونحن ندخل فى الممر الطويل الضيق فتنفعم أنوفنا روائح الكلس وعطن البول •• وفى الفناء امتدت تكويناتنا الرباعية لتصنع طابوراً واحداً ، فوقفنا متصبرين لنتقى التقوض والانهيار • وصمت قائدنا مليا ، ربما ليتم تعذيبه لنا ، ثم قال بصوت هادىء ملىء بالنذر :

ـــ انتهت رحلتنا ، وغدا يجمعنا الحساب ، أما الآن فتناولوا عشاءكم ثم أخلدوا للنوم ••

ولم يهمنا الا النوم ••

أجل ، ليكن الآن نوم ، وليكن فى الغد حساب •

العريس



عند تلك النقطة من الحديث مال نحوى حتى شعرت بأنفاسه تتداح فوق صدغى وقال :

ـ اعزم وتزوج •

استجبت لاقتراحه ، كنت فى الواقع أتلهف عليه ، بت مؤمنا بأن الزواج هو المغامرة الوحيدة القيمة الباقية لى فى الحياة •

قلت :

ـ فكرة طيبة •

ـ وماذا تنتظر ؟

ـ أنتظر العروس بنت الحلال •

ـ هل بحثت عنها بجد ؟

ـ لا وقت عندى للبحث •

فقال واهتمامه بالموضوع يزداد بقوة :

ـ يوجد حل لكل موقف معقد ، ما هى شروطك ؟

ـ عروس مناسبة ، هذا ما أريد •

ـ ست بيت أم عاملة ؟

ـ ست البيت مفيدة والعاملة لها مزاياها غير المنكورة •

ــ العاملة تملك ايرادا ؟
ــ الفقيرة مقبولة عندى وذات الايراد مقبولة أيضا ٠
ــ لك مواصفات خاصة فى الجمال ؟
ــ حسبى أن تكون مقبولة ٠
ــ شروطك يسيرة ، أنت تريد امرأة حسنة المعاشرة ٠
ــ بلا زيادة ٠
فقال بثقة :
ــ طلبك موجود ، هل تعرف أسرة ميرى ؟ ، عابد ميرى ؟ ، كريمته هى من أرشحها لك ٠
وقادنى ذات يوم الى أسرة عابد ميرى فقدمنى لهم ــ الأب والأم والفتاة ٠ والحق أنى غادرت بيتهم عاشقا أو قريبا من ذلك ، تبدت لى الفتاة مثالا للرزانة والأنوثة والـكمال البيتى ، أحببت وقار الأب وأبهة الأم ٠ وفى ذلك اللقاء تم الاتفاق الأولى وهو ما يقابل الترشيح للوظيفة فى اصطلاحاتنا الحكومية ، وبقى الأهم وهو مسوغات التعيين وتقرير مكتب الأمن ٠ ومن ناحيتى تحريت عنهم فجاءتنى تقارير متناقضة كالمتوقع ، قيل لى :
ــ نعم التوفيق ، أسرة ولا كل الأسر ، ضمنت الطمأنينة والسلام فى الحياة والموت ٠
وحذرنى آخر قائلا :
ــ لا تغرنك المظاهر ، ستخنقك أغلال العبودية ٠

وسمعت حكايات عن جنون بعض آفراد الأسرة وانتحار آخرين ولكن لم يوهن ذلك من عزمى ، تحصنت بخبرتى الطويله بالحياة والبشر ، وأسكرتنى نشوة متحفزة للمغامرة ودق أبواب المجهول ، وقلت لنفسى ان الحياة نفسها شبيهة بهذا الذى يقال ، تلقيناها وهى مثال للأمان حتى بعد الموت ثم تكشفت لنا عن مجهول جليل واحتمالات مبهمة وما زلنا نعشقها ونتعلق بأذيالها حتى الموت ٠

وفى الوقت نفسه تعقبتنى التحريات تغوص فى أعماق ذاتى وتاريخى ، فساورنى قلق غير قليل ، ورجوت آن يسود التسامح وينتصر فى النهاية ٠ وجاءنى صديقى الوسيط وقال لى :

ــ لم أعرف أسرار صحتك الا هذه الأيام ٠

فدهشت وتساءلت :

ــ حتى عن الصحة يتحرون ؟

ــ طبعا ، كثيرون لا تزكيهم فى الختام الا صحتهم القوية !

ــ انى بحمد الله أتمتع بصحة جيدة ٠

ــ ولكن توجد رصاصة مستقرة من قديم فى صدرك تحت الترقوة !

فضحكت منتشيا بالذكريات وقلت :

ــ ذلك تاريخ قديم ٠

ــ ولكن كيف نفذت الى صدرك ؟

فقلت بعد تردد :

ــ فى مظاهرة وطنية .

ــ تلك حجة كل مصاب برصاصة قديمه .

ــ أيمكن أن يشكو فى ذلك ؟

ــ العجوز أصبح يشك فى الثورة نفسها مع أنه كان من معاصريها . هو اليوم يقول انه لم تندلع ثورة ولم يطلق رصاص ولم يستشهد أحد .

ــ هذا جنون رسمى !

فابتسم الصديق قائلا :

ــ على أى حال فمن حسن الحظ أنه قيل له ــ عابد ميرى ــ انك أصبت بها فى ملهى للغناء والرقص !

ــ أتعد ذلك من حسن الحظ ؟

ــ نسبيا ، يمكن الدفاع عن عبث الشباب وطيشه أما التورط فى شئون السياسة فيعرض الانسان لأخطار مجهولة وبالتالى تتعرض لها أسرته ، على أننى دافعت عنك فى هذا الشأن .

ــ ماذا قلت ؟

ــ قلت انك لم تنتم لحزب ، ولا تنتمى لرأى ، وأنك مخلص للدولة ، لم تكن من الليبراليين ولا الشيوعيين ولا الاخوان وذلك بلا شك يزكيك كزوج مأمون المستقبل !

فقلت بانقباض :

ــ ولكن من الظلم أن يقال اننى تعرضت للقتل فى ملهى للرقص !

ــ ما علينا ، وما حكاية خوفك من الصراصير ؟

فضحكت عاليا وقلت :

ــ حتى هذا !

ــ قيل انك تهدر وقتا ثمينا فى رش المطبخ والحمام والحجرات ، وأن منظر صرصور خليق بأن يفزعك لدرجة الصراخ ، حتى ولو كان من النوع الألمانى الصغير الرشيق !

ــ أهكذا تصفه ؟

ــ الأمر تافه ، يبدو تافها ، ولكن ماذا يعنيه ؟ ، هذه هى المسألة ، ويقال أكثر من ذلك انك تتوهم أن البلد ستتحسن أحواله كثيراً اذا نجحت فى ابادة الصراصير •

غضبت ولا شك وأنا أتابعه ثم سألته بازدراء :

ــ أيهتمون حقا فى بيت عابد ميرى بتلك السخافات ؟

ــ يا عزيزى انهم يحترمون بعض الذكريات المتعلقة بالصراصير •

ــ كلا ! !

ــ هو الحق ، كانت لهم جدة تؤمن بأن الصراصير تحمل بعض أسرار الوجود •

فقلت ساخراً :

ــ اذن نحاول احترام الصراصير حبا فى آل ميرى •

ورحت أفكر ــ عقب انفرادى بنفسى ــ فى طريق الزواج المعقد وهوس التحريات التى تسبقه ، كأن الناس يطمحون الى الظفر بالتوافق المنشود بين الزوجين كاملا غير منقوص ، جاهزا بلا عناء التجربة ، قبل خوض الحياة الزوجية ، متناسين قدرة الانسان الخارقة على التكيف مع تحـديات الواقع ، فالانسان الذى عاشر عصور الصيد والرعى والزراعة والقحط والجليد فتغلب على عناء المواجهة وحل التناقضات القاسية وحقق ذاته على الوجه المقبول الذى قرر له البقاء فى الحياة ، ذلك الانسان قادر بلا شك على التكيف مع عروسه الجديدة مهما يكن من تنافر ماضيه وماضيها . وفكرت أيضا فيما كان يؤخذ على فى الماضى من عدم الانتماء لحزب من الأحزاب ، وما رميت به بسبب ذلك من تهم البلادة وقلة التربية الوطنية وغلبة العبث والتفاهة والأنانية وكيف انقلب ذلك الى نقطة قوة تزكينى فى غمار التحريات التى تنهال على منقبة عن المستور من خطاياى !

***

وجاءنى صديقى الوسيط بعد ذلك بأسبوعين فتفحصته بقلق وقلت :

ــ طبعا ما زالت التحريات جارية ؟

فضحك باقتضاب وقال :

ــ الحديث كان عن السلوك الشخصى .

ــ هو على أى حال من ذيول الماضى الذى قررت تغييره من جذوره .

ــ أنا نفسى قلت ذلك ، ولكن الماضى يتمثل لبعض الناس وكأنه الحقيقة الوحيدة الراسخة .

ــ يا له من موقف سخيف حقا .

فقال برقة ليخفف من وقع حمولته :

ــ كلام قيل عن القمار .

فهتفت من فورى :

ــ كلا . لست بطبعى مقامرا ، لعبت مرات معدودات ثم لم أعد اليه .

ــ والخمر ؟

ــ اسمع ، صدقنى ، دائما كنت وما زلت معتدلا ، لم أفقد الوعى الا مرة واحدة .

ــ آل ميرى لا يخافون الشراب بقدر ما يخافون عواقبه .

ــ لم تكن ثمة عواقب وخيمة .

ــ عابد ميرى نفسه يشرب ، وهو يغنى اذا شرب ، ولكن قيل له انك طولت لسانك مرة على الاستبداد وأنت فاقد الوعى !

ــ قلت لك اننى لم أفقد الوعى الا مرة واحدة .

ــ ربما وقع ذلك فى تلك المرة ، وعابد ميرى يخاف أن يتكرر ذلك بعد أن تكون قد صرت زوجا وأبا ؟

فقلت بحدة :

ــ لا أساس لخوفه صدقنى ، ثم انه لماذا تذكر تلك الزلة وتنسى مجاملاتى الطويلة للاستبداد وأنا فى تمام الوعى ؟ !

ــ الموضوع قابل للمناقشة فلنتركه الى حين ، ولكن ما الرأى فى ولعك بنسوان شارع محمد على ؟

فقلت وكل شىء يتجهمنى :

ــ ماضى أى رجل لا يخلو من عبث مثل ذلك .

ــ عابد ميرى يسلم بالمبدأ ولكنه يحتج على الذوق ، وقال ان يكن ذا ولع خاص بأولئك النسوة فكيف أتصور أنه يمكن أن ينسجم مع فتاة كريمة مثل ابنتى !

ــ وهل يوجد فارق حقيقى بين كريمته وبين نساء محمد على ؟

فضحك صديقى وقال :

ــ آه لو سمعك تقول ذلك .

وساد صمت يغلفه الأسى ، وارتسم الاشفاق على وجه صديقى ، ولكنى أشرت اليه أن يواصل ، فقال :

ــ يتحدثون عن شقة مفروشة تملكها بناء وأثاثا !

ــ وفى نيتى أن أقيم فيها بعد الزواج ، ماذا فى ذلك ؟

ــ الشقة لا تهم ولكن من دأبت على استقبالهم فيها !

ــ ماذا يقصد الأوغاد ؟

ــ ها أنت تغضب فيحسن بى أن أسكت .

ـــ هات ما عندك ، وان أردت جوابا فانى كنت أستضيف بها نخبة من الأصدقاء ٠

ـــ أصدقاء من نوع خاص ، من اخواننا العرب الأثرياء ٠

ـــ استضفتهم بصفتهم أصدقاء لا أثرياء وقد توطدت علاقتى بهم مذ أيام اعارتى للعمل فى بلادهم ٠

ـــ أما أنا فأصدقك ولكنك تعلم كيف تترجم تلك العلاقات البريئة على ألسنة السوء !

فاستنشطت غضبا وهتفت :

ـــ للصبر حدود ٠

ـــ لا تغضب فذاك امتحان يتعرض له كل طالب زواج ٠

وعجبت ـــ وحق لى أن أعجب ـــ من تشدد الناس فى تحرياتهم ٠ وعجبت أكثر بالنظر الى أننا نعايش فترة من الانحلال والفساد بات يضرب بها المثل ٠ فلم يتشدد الناس فى تحرياتهم كل ذلك التشدد ، وهل يعتقد الآباء أنه يمكن أن ينتقوا أزواجا لبناتهم من منطقة مجهولة تقع خارج الزمن والتاريخ ؟ ٠ وهل عش الزوجية أهم أهم فى حياتنا العامة من الوظيفة ؟ ٠ وألا يضج الناس بالشكوى ليل نهار من الخدمات المبتورة ـــ وضمنا ـــ من المسئولين عنها ؟ ، فكيف تزوج أولئك القادة وكيف تفادوا من مطاردة التحريات ؟ ! ٠

ومضى حماسى الزواج يفتر ، وندمت على تعريض نفسى لألسنة لا تعرف الرحمة ولا الحياء •

***

وبعد مضى ثلاثة أسابيع رجع الى صديقى فبـــادرته من فورى :

ــ لن أستمر •

فقال بحدة :

ــ انى أحتقر الضعف ، اصمد حتى النهاية ، ولا تهز ثقتك الكاملة بنفسك •

ــ سأخفق فى الزواج وأبوء بسوء السمعة •

ــ اعتبرنى لم أسمع شيئا ، واسمع أنت ما قيل عن عملك !

وأثار حب استطلاعى بقوة فلم يسعنى تجاهله ، قال :

ــ شهد لك كثيرون بالتفانى فى العمل •

فلم أعلق وانتظرت متوقعا ما لا يسر •

ــ ولكن قيل انك تحب السلطة وتركيز كل نشاطك فى يديك ثم تنطلق شاكيا من عدم تعاون الموظفين معك !

ــ لن أناقش ، ولكن ما علاقة ذلك بلياقتى للحياة الزوجية ؟

ــ كل سلوك مهما بدا عرضيا فله دلالته •

ــ استمر •

ــ وقيل كلام عن تحقيق أجرى معك بخصوص بناء مجمع !

ــ وماذا كانت نتيجته ؟ ، التحقيق مجرد اجراء فلا هو خير ولا هو شر ، وها هم يروننى مستمرا فى عملى ، بل ترقيت مرتين بعد التحقيق ، فما حكمة التنديد بى بسببه ؟

ــ لك حق .

ــ اذن فلنعتبر تلك النقطة منتهية .

ــ ولكن قيل أيضا انك هددت بجر آخرين أكبر منك معك فحفظ التحقيق !

ــ عليهم اللعنة !

ــ انهم يستحقونها .

ــ أتحداهم أن يثبتوا ذلك !

ــ عليهم اللعنة ، ولم يقفوا عند ذلك ، بل جعلوا يتساءلون ، كيف يعيش حياته المرفهة ؟ ، كيف ملك الشقة المفروشة ؟ ، والسيارة ؟ ، من أين له ذلك ؟

فكورت قبضتى غضبا وقلت :

ــ يتجاهلون ما ورثته عن والدى ، كما يتجاهلون حقيقة أخرى وهى أن بعض مؤلفاتى المدرسية مقررة فى مدارس البلاد العربية .. ، فكل مصدر لايراد عندى واضح وشريف .

توقعت أن يتكلم عن الذين قرروا كتبى وعن علاقتهم

بالأصدقاء الذين أستقبلهم فى الشقة المفروشة ولكنه لم يفعل ، كأنما نكص حيال درجة الحرارة التى ارتفع اليها حنقى ، بيد أنه حدجنى بنظرة قصيرة قرأت فيها ما تورع عن ترديده • وجعل يضحك ويقول :

ـ الرجل المخرف عابد ميرى يميل الى تصديق الأكاذيب ، وفى آخر لقاء قال لى ان سوء الظن من الفطنة وأنى بت أعتقد أن ذلك العريس هو المسئول عن ٥ يونيه !

فصحت فى ذهول :

ـ اذن فانى المسئول عن ٥ يونية !

وغادرت المكان مسرعا لا أكاد أرى طريقى من الغضب • ماذا يعرف المخرف عن ٥ يونيه ؟ • انى مع التسليم بكافة جرائمى الخلقية أعد أو يجب أن أعد من أشرف الرجال • وهل أغرانى بالخطايا الا الاقتداء بالآخرين ؟ ! • وكنت فى الوقت نفسه ضحية ، أجل ضحية لرؤسائى الذين ضربوا لى أسوأ مثل ، وها أنا أحرم من جنة الاستقرار العائلى كأننى المجرم الوحيد ! •

وقررت العدول عن فكرة الزواج نهائيا •

وقلت لنفسى انه ليس بالمرأة وحدها يحيا الانسان •

وندمت أشد الندم على تعريض نفسى للزوبعة التى عصفت بهـــا .

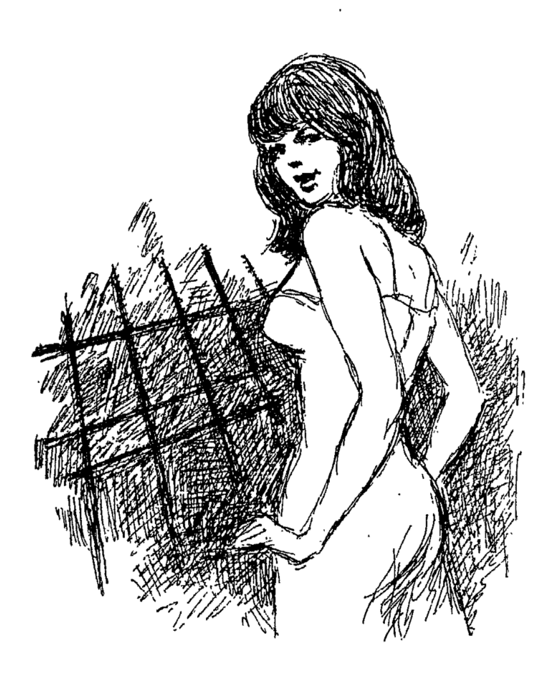
***

وكنت جالسا بمكانى المختار عندما لمحت صديقى قادما من بعيد . رددت فى نفسى الكلام الفظ الحاسم الذى سأجابهه به . وقررت أن أعلن تمردى على الزواج الى الأبد .

وبادرنى الصديق ، قبل التحية ، قائلا :

ـ عابد ميرى يحييك ، ويرجو أن تحدد موعدا لاعلان الخطوبة فى أقرب وقت ممكن !

العري والغضب



ناعمة مستكينة ، مهذبة غارقة فى الطمأنينة ، ملهمة لأحلام البيت السعيد ، تنتشر كالشذى فى أعماقه فتشكل بضعفها المنساب طاقة مسيطرة بعون الاغراء والرغبات الدفينة • وكانت بمجلسها أمامه فى الترام صورة مجسدة لأمنية عذبة غامضة ، منعشة للروح ، مبدعة للألفة الحميمة ، فقال لنفسه ان هذا هو ما أبحث عنه • والتقت عيناها فى حركة عفوية بعينيه المركزتين فانتبهت من أحلامها واعتدلت فى جلستها ونحت وجهها مدارية ابتسامة خفيفة جدا لادراكها بأنها كانت موضع نهم والتهام • ودفعته الابتسامة الى اتخاذ قرار جرىء بتأجيل زيارته للمحامى ــ رغم دقة المرحلة التى تمر بها القضية ــ اذا دعت الى ذلك فرصة طيبة • ولم يغادر مجلسه فى محطة « المحامى » ، لبث ينتظر حظه المجهول ، ولكنه تذكر على رغمه المحن التى عاناها ــ هو وأسرته من قبله ــ ما يقارب ربع القرن والتى احتوتها فى النهاية القضية ، فلم يمض قراره بلا قلق ، ولكن هل تقوم القيامة اذا تأجلت الزيارة أسبوعا ؟ • وانقبض قلبه وهو يتخيل محاميه فى غضبه لتخلفه عن الميعاد دون اعتذار ، فانه محام صارم ، يحتقر المزاج ولا يحنو على الضعف البشرى •

ولما رجع بوعيه الى الجالسة قبالته ضبطها تنظر اليه فى دهشة فأدرك من توه أن انفعالاته قد ترجمت الى تشنجات فى قسمات الوجه وعضلاته وربما تعدت ذلك الى اليدين ، أجل فان ذلك مما يلاحظ عليه أحيانا ، ولكنه ابتسم اليها بجرأة لا تعوزه فى أمثال هذه المواقف فأحنت رأسها باسمة ، عند ذاك حل الرضى بصدره واطمأن الى أن تضحيته لن تضيع فى الهواء • وقامت فقام وراءها بتلقائية وبلا أدنى ارتباك وبعد ثوان كانا يترامقان مواجهة على الطوار على حين امتد وراءهما ميدان الضاحية شبه خال وقد احمر قرص الشمس ايذانا بالمغيب • تمتم :

ــ فرصه سعيدة •

فمضت الى الطريق الوسطى دون أن تجيبه ولكنها دعته بأسلوبها المشجع الصامت للحاق بها • ومشى الى جانبهــا فتقبلت ذلك دون اعتراض فعاد يقول :

ــ فرصة سعيدة ••

كان الطريق سكنيا بلا دكاكين ، به قلة من المارة ، وكثرة من السكان تتواجد فى الحدائق ، ولما لم يتبين لها هدفا قريبا فقد قال :

ــ يوجد قريبا من هنا فرع للفردوس •

ولكنها واصلت السير فسار الى جانبها وهو ينظر فيما أمامه متسائلا • ووجدها تتجه نحو بيت صغير من دور واحد

فاقتحمته دهشة وتلقى رد فعل حاد وأليم • صدق ما يرى بصعوبة واحتجاج وتبرم وقال لنفسه : « حقا انه لزمان زالت فيه الفوارق بين الأنواع » • وبتبدد الحلم لم تبق الا الحقيقة القاسية المبتذلة ، فشعر بتأنيب لتفويته ميعاده الهام بشأن القضية ، وتبعها الى الداخل بلا حماس يذكر • ووجد البيت صغيرا حقا ، يتكون من صالة طويلة وحجرة وحيدة فى النهاية • حجرة نوم آية فى البساطة أو فى الفقر ، بها فراش ومشجب ومقعد وحيد ، وحتى الفراش اقتصر تجهيزه على حشية ووسادة بلا غطاء ولا ملاءة ، وانبسطت أرض الحجـــرة الخشبية بلا سجادة ولا كليم ولا حصيرة • ابتسم بفتور وهو يتذكر أحلامه المنتشية وقال انه لم يبق ما يستحق الاهتمام الا المرأة نفسها ، الجميلة ذات المظهر الخداع • ورجع المحامى يلح على وجدانه فسألها وهو يعلم بالجواب مسبقا •

ـ يوجد تليفون ؟

فهزت رأسا بالنفى وهى شارعة فى خلع ثيابها فقال مداعبا يأسه :

ـ صحتك ••

فنظرت نحوه باهتمام فرفع كأسا متخيلة فى الهواء ثم رشف منها رشفة فابتسمت وواصلت خلع ثيابها فى رسوخ المحترفات حتى تبدى جسدها عاريا جميلا محايدا ، ونظرت نحوه كأنما

تحثه على الاقتداء بها ، فأذعن لدعائها الصامت وهو ينادى باصرار حماسه الهارب •

***

وغادرت الحجرة فأشعل سيجارة • تابع الدخان بفتور وأسى • عاد يفكر بالقضية ، وبالنقاط التى عن له أن يناقشها مع المحامى • لو وجد تليفونا لانتحل عذرا للرجل واتفق معه على موعد آخر • ولا فائدة ترجى من الذهاب الآن لأنه سيجده منشغلا بموعد آخر • ولا فائدة ترجى من الذهاب الآن لأنه سيجده منشغلا بموعد آخر أو يجده قد غادر المكتب • وقد عاش زهرة عمره ولا أمل له الا كسب القضية ولكن الله وحده يعلم بما عانت أعصابه طيلة تلك الفترة الغالية من العمر •

ـــ لا تلجأ الى المحاكم • المحاكم حبالها طويلة ، وهيهات أن تظفر فى ساحتها بحاجتك •

ـــ وما عسى أن أفعل ؟

ـــ كما كان يفعل أجدادك ، بل كما يفعل خصومك ••

ـــ ولكن الزمن تغير •

ـــ الزمن لا يتغير ، أنت الذى تغيرت ••

ـــ انى رجل متعلم •

ـــ عليه العوض !

اليوم لا يدرى ان كان أصاب أم أخطأ ، ولكنه وقع فى

أسر القضية . فوكل المحامى ، وتبارى المحامون ، وتـكلم الشهود . ولم يعد فى الامكان تغيير الخطة • وها هو عار ملقى على فراش عار على حين ينتظر المحـامى ويتعجب ! • ولكن ألم تغب الفتاة فى الحمام أكثر مما يجب ؟ • أى مظهر خداع • وأى آمال قد تبددت • يبدو أن الدنيا تتغير بأسرع مما يدرك • وقد ينزلق فى هاوية مخيفة بسبب رغبته الملحة فى الزواج والاستقرار • وفضلا عن ذلك فعليه أن يؤجل مشروع الزواج حتى يتم الفصل فى القضية ، والا فما جدوى أن يتزوج اليوم ثم يشهر افلاسه غدا ؟ ! •

ــ هل تلجأ للقضاء لأنك متعلم حقا أو لأنك ضعيف ؟

ــ انك تتكلم يا عمى بلغة هيروغليفية ••

ــ ابصق على ذقنى ان نجحت فى ذلك السبيل مقاصدك •

ــ نحن نتفاهم بلغة حية جديدة •

لابد للحق أن ينتصر ولو طال الزمن ، ولكن ما بال المرأة قد تأخرت ؟ ، ماذا تفعل فى الحمام ؟ • وبرم بالانتظار فغادر الفراش ، فتح الباب نصف فتحة ، أخرج رأسه فرأى الصالة غارقة فى الظلام الا شعاعا يترامى من منعطف جانبى خمن أنه الحمام • تنحنح فلم يرد أحد • صفق فلم يرد أحد • سار على أطراف أصابعه نحو الضوء حتى وجد نفسـه فى الحمام ولكنه وجده خاليا • أدرك أنها اغتسلت ثم ذهبت الى مكان ما ــ لعله المطبخ ــ فقرر أن يأخذ دشا • وتحت

سيال الماء المتدفق انتعشت روحه وخف شعوره بالذنب حيال المحامى • أجل سيرميه بالاهمال فهذا دأبه كلما قعد به عن الاتصال به عذر ، ومع ذلك فعندما واظب على ملاحقته فى الشهر الماضى ضاق به وقال له :

ـــ يلزمك أعصاب من حديد لكى تواجه حياة العصر ••

وقال له أيضا مازحا :

ـــ انى أتوقع أن تجيئنى المرة القادمة حافى القدمين مرسل شعر اللحية والرأس مسطولا كما يفعل شباب العالم الحر !

والمسألة فى حقيقتها أن القضية هى حياته أما بالنسبة للمحامى فهى النشاط رقم كذا فى جدول أعماله الحافل بأمور لا نهائية ـــ وهو ـــ المحامى ـــ رغم رسوخه فى العلم وقدرته الفائقة على الانجاز ، ورغم عطفه الشديد عليه ، فانه لا يكن له احتراما كافيا • وفى ساعة صفاء وهما يتناولان الغداء معا قال له :

ـــ لولا اندفاعك الجنونى لما كان للقضية وجود أصلا ••

فقال له باصرار :

ـــ انها مسألة كرامة ••

ـــ ولكن حتى الاندفاع الجنونى يجب أن يقوم على أساس من العقل !

ـــ الحقيقة أنك لا تفهمنى ••

ـــ حقا ! أأنت لغز ؟

ــ انى أحترم أمورا تعتبرها أنت بكل بساطة خرافات وأباطيل ••

ــ لقد تأخرت يوما عن موعد هام لتشهد صلاة العيد فما معنى ذلك ؟

ــ قصصت عليك عشرات القصص ولكنك لا تصدق •

ــ حقا ؟ •• فماذا يعنى جريك وراء النسوان وتقلبك فى الحانات ؟

عند ذاك قال بانفعال :

ــ أأنت محام أم مرب ؟ !

وغادر الحمام عائداً الى الحجرة وهو يضمر لها ــ المرأة ــ عتابا على طول اختفائها ولكنها لم تكن قد رجعت بعد • وذرع الحجرة ذهابا وجيئة ثم قرر أن يرتدى ملابسه • اتجه نحو المشجب ولكنه لم يجد لملابسه أثرا • ذهل ، أجال بصره فى أنحاء الغرفة ولكنه لم يعثر على شىء • أية مداعبة سخيفة •

ــ رباه !

ندت عنه فى ذهول أشد عندما تبين له أيضا أن ملابس المرأة غير موجودة • تفحص أنحاء الحجرة بغضب ، نظر أسفل السرير ، مضى نحو الباب وصفق بشدة • ولم يكن عرف لها اسما فصاح :

ــ يا ست !

وبنبرة أشد :

ــ يا هوه •

واندفع يفتش الشقة الصغيرة ، الحمام مرة أخــرى والمطبخ ولكنه لم يجد أثرا لانسان • ومضى نحو باب الشقة فوجده مغلقا باحكام فرجع الى الحجرة وهو يتميز غيظا وحنقا • واضح أن المرأة قد ذهبت • من السهل تصور أنها كانت مختفية فى ظلام الصالة عندما دخل الحمام ، ثم ارتدت ملابسها بسرعة وأخذت ملابسه وذهبت • ما معنى ذلك ؟ • هل أرادت سرقته مع منعه من اللحاق بها ؟ • افتراض غير مطمئن ، وثمة سؤال آخر ، بيت من هذا ؟ •• وأى علاقة للمرأة به ؟ ، وكيف تتركه عاريا فى هذه الشقة الجرداء ؟ ! •

وشعر بالعجز والقهر والضياع اللانهائى • لن يرجع الى ما كان عليه ، ذلك الرجل المحترم • انه يودع حياة يعرفها ليستقبل حياة مجهولة مدمرة • ولكنه لا يريد أن يصدق ، لعله مزاح ثقيل سخيف ليس الا ••

ولكن الوقت يمر بلا مبالاة • وفجأة ضرب بيده على جبينه وهتف :

ــ مكيدة ، انها لمكيدة مجرمة !

لا تقع هذه الأمور مصادفة • ان أيدى خصومه تتراءى له وهى تدبر بخبث واحكام رامية فى النهاية الى افشال القضية • يتذكر الآن أنه لمح المرأة فى مشرب الشاى قبل أن يغادره ليستقل الترام • وأنها جاءت فى أعقابه لتجلس أمامه •

وسألته عن الساعة لتضبط ساعتها وفى الحقيقة لتلفت نظره اليها • وأنها لم تكن ملاكا كما تصور ــ كيف تصور ذلك ــ فقد فرجت بين ساقيها العاريتين لحظة ثم ضمتهما بسرعة وحياء مصطنع فظنها حركة بريئة طاهرة ، ثم استسلمت لأحلام مجهولة فى استرخاء ناعم ، فكان بوسعه أن يدرك حقيقتها ، ولكنه ثمل بخياله الجامح ورغباته الدفينة فرأى ما لا وجود له وبنى عليه العلالى واندلق كغر أبله • لقد أحاط خصومه بتحركاته وأهوائه فرسموا خطة محكمة وأوقعوه بسهولة مخجلة ثم تركوه عاريا فى مسكن مجهول ليتوقع قدرا مجهولا • وبمقتضى ذلك المنطق السليم القاسى فعليه أن ينتظر ضربة قاضية فى المصيدة •

ــ ما العمل ؟

كيف يفر قبل أن يدهمه الخطر ؟ • وجال فى المسكن مرة ومرة بلا جدوى على الاطلاق • ليس اغلاق الباب بمشكلة فبوسعه أن يقفز من النافذة ولكن كيف يواجه الطريق عاريا ، هذه هى المشكلة • وأدرك أن خلو السرير من الغطاء والملاءة لم يكن عن فقر أو مصادفة ولكنه ضمن الخطة التى رسمت لحرمانه من أى شىء يستتر به جسده • وقف وراء النافذة ينظر من خصاصها الى الطريق المضىء الذى لا يخلو لحظة من عابر ، كيف يمكنه أن يمضى فيه عاريا ؟ ، وماذا يفعل عندما يبلغ الشوارع المزدحمة بفرض أن أمكن عبور هذا

الشارع دون حادث ؟ ! • وسواء أبقى أم انطلق متخطيا حدود العقل فسوف يقع تحت طائلة احدى تهمتين خطيرتين ، السطو أو الجنون ، وكلتاهما خليقتان بزلزلة أركان القضية ، فما العمل ؟ • ولم يشعر فى وقت مضى بما يشعر به الآن بالحاجة الماسة الى مشاورة محاميه لعله يهديه الى منفذ فى عالم القوانين المتشعب الذى يجهله كل الجهل • قال له ذات مرة :

ــ احرص على الجدية والاستقامة فان أى هفوة ماسة بسمعتك ستبدد مجهودى هباء •

فسأله ضاحكا :

ــ أتطالبنى بالتقشف حتى يصدر الحكم ؟

ــ ولم لا ؟

ــ ومتى تراه يصدر فى تقديرك ؟

ــ آسف على أنك لا تحترم التقشف وبخاصة فى ظروفك الراهنة التعيسة !

واشتعل غضبا فهم بتعنيف الرجل • أكثر من مرة هم بتعنيفه ولكنه كان يتذكر أنه لم يدفع له مليما واحدا سوى رسوم التوكيل ، وأن الأتعاب مؤجلة ومنوطة بكسب القضية ، فيرجع الى عقله ويكظم غيظه ويسكت • والحق أنه لا يحب التقشف ، بل أنه يضيق بمحاميه لتقشفه المعروف عنه ، وأى قيمة للحياة بلا طعام لذيذ وشراب هنىء وعناق حار ومقام

وثير ؟ ! • ذلك جميل حقا ولكن تحت شرط ألا يجد نفسه عاريا فى بيت غريب متوقعا بين لحظة وأخرى أن تدهمه ضربة قاضية •

وتساءل عما يراد به • هل يتركونه حتى يضطره الجوع الى الخروج ؟ • هل يجيئون ليخيروه بين التنازل عن القضية وبين استدعاء الشرطة اضبطه بالحال التى هو عليها ؟

هذا أو ذاك أو غيرهما من الاحتمالات ، كلها طريق واحدة تفضى الى الضياع •

وغلى دمه •

كل شىء محتمل الا تخيل ابتسامة الشماتة فوق شواربهم الغليظة •

وسمع صوتا فهرع الى النافذة فرأى سيارة تقف أمام البيت •

ــ كما توقعت قد جاءوا ••

واندفع دمه فى الغليان • ومن شدة القهر جن غضبه • واكتسح الغضب الخوف فلم تبق فى صدره الا ألسنته المشتعلة • كان لعبة بأيديهم طيلة الوقت ولكنه رفض أن يستمر لعبة وأضاء المصباح فتبدى عاريا ، متجردا من الخجل والخوف • ها هى الحركة تدب خارج الحجرة • ستطالعه نظرات باردة وبسمات ساخرة فليبتسم وليسخر مثلهم • سيقول مقدمهم وهو يصطنع دهشة مقيتة :

ـــ ماذا نرى ؟

فيقول بهدوء تام :

ـــ طال انتظارى لكم !

ـــ هكذا عاريا !

ـــ كما ترون !

وليكن ما يكون ولكن اللعبة لن تستمر •

واقتربت الأقدام ثقيلة وتطايرت الضحكات •

وانتظر ينظر فى هدوء وتصميم وعناد •

غير مبال بالعواقب •

الجريمة



تلاشى الهدوء فى رحاب التاريخ ، تغيرت أشياء كثيرة ، برزت معالم جديدة ، ولكن بقى الحى الشرقى يزخر بالأزقة والحوارى والبيوت البالية ، يقابله الحى الغربى بفـلاته الكلاسيكية وعمائره الأنيقة الحديثة ، هكذا وجدت الضاحية التى ولدت فيها بعد غيبة دامت ربع قرن • بهرنى ميدان المحطة باتساعه ومبانيه الحديثة وتمثال الفلاحة الناهضة ، والشارع العريض الطويل الغائص فى أعماق الضاحية حتى المسلة القائمة فى الحديقة الكبرى ، كما بهرتنى المصانع الجديدة بضخامتها ومداخنها النفاثة وضجيج آلاتها •

ورغبة منى فى الاختلاط بالناس وتوثيق علاقتى بهم قررت الاقامة فى الضاحية فذهبت الى مكتب سمسار للشقق وجلست فى الانتظار بين جمع من الرجال والنساء • جلست بوجه بسام مشحوذ الهمة للاستجابة لأى بادرة ودودة ولكنهـم كانوا منهمكين فى الحديث :

ـ ألم يستدل على شخصية صاحبة الجثة ؟

ـ كلا ، وجدت مدفونة من سنين ومحترقة تماما ••

ـ كم سنة ؟

ـ أربع أو خمس سنوات ، هذا ما كتب فى الخبر •

ــ والقاتل ؟

ــ لم يعرف بعد ، والأرجح أنهم عصابة ، فالقتل والاحراق والدفن تحتاج الى أكثر من مجرم واحد ..

وتداخلت فى الحديث سائلا :

ــ ألم يعلن فى الضاحية وقت ارتكاب الجريمة عن اختفاء امرأة ؟

فساد صمت انقطع به الحديث مليا ثم قال شخص :

ــ لا يمكن تذكر ذلك .

فقلت :

ــ ولكنه لا يمكن أن يغيب عن تفكير المحقق ..

لم تحز ملحوظتى قبولا فيما بدا لى ، فأكدت غربتى بدلا من أن تفتح لى مدخلا الى علاقة حميمة . وخفت أن أكثر من الأسئلة فيساء بى الظن وخاصة لشدة حساسيتى من ناحية المهمة التى أحمل أمانتها ، وليقينى المستند الى خبرة مهنتى بأن الأعين يجب أن تكون منتبهة تماما نحو أى دخيل قد يهدد أمن الضاحية وسرها العجيب . وجاء دورى للمثول أمام السمسار فوجدت فى حجرته نفرا من المتعاملين ، ووجدت أن حديث الجريمة يطوف بهم رغم انهماكهم فى انجاز أعمالهم ، وحتى السمسار نفسه يشارك فيه :

ــ لا حديث للضاحية الا الجريمة ، يتردد فى السوق والمكاتب والمصانع والأكواخ والفيلات ..

ـــ ذلك طبيعى جدا •

ـــ وما الفائدة ؟

فقال السمسار :

ـــ ثرثرة ، معالجة عقيمة للخوف والعجز ، ثرثرة لا جدوى منهـا ••

ـــ ثرثرة وأمانى فارغة •

ـــ ولم الخوف بالله كأنما كل فرد من الضاحية يخشى نفس المصير ••

غادرت المكتب بعد أن أجَّرت حجرة مفروشة فى مبنى بالحى الشرقى ، وسط الجمهور الذى أعتمد عليه فى استخلاص الحقيقة المنشودة • وتذكرت مقابلتى لرئيسى التى كلفت فى ختامها بالمهمة • قال :

ـــ ستذهب الى الضاحية لجمع التحريات والمعلومات •

وقال أيضا :

ـــ من حسن الحظ أن أحـــدا من رجال الأمن هنـــاك لا يعرفك ••

فسألت باهتمام وأدب :

ـــ ولكن لم سوء الظن يا سيدى ؟

ـــ حسن ، طمست معالم جرائم قبل ذلك وقيدت ضد مجهول ، لم تكن بفظاعة جريمة اليوم ، ولكن ليس ما يمنع من أن يكون مصيرها كمصير سابقاتها ••

ـــ ورجال الأمن هناك ماذا يفعلون ؟
ـــ أتريد رأيى ؟ •• انهم متواطئون ، لعلهم يقومون بالدور الرئيسى فى طمس معالم الجريمة ••
ـــ ولكن لماذا ؟
ـــ ذلك ما أود أن توافينى بأسبابه ••
ـــ وأهل الضاحية ما موقفهم ؟
ـــ هذه هى المسألة ••
ـــ أليست القتيلة منهم وكذلك القاتل ؟
ـــ انى أومن بذلك كل الايمان ••
ـــ اذن لم لا تكتشف الحقائق ويقبض على المجرمين كما يحدث فى كل مكان ؟
ـــ هذه هى المسألة •

كذلك دار الحديث قبيل تكليفى بالمهمة • لم تكن مهمتى اجراء أى تحقيق بصفة سرية لمعرفة شخصية القتيلة أو القبض على القاتل ، وما كان ذلك بوسعى ، لأنه لا يقع فى اختصاصى من ناحية ، ولأنه أمسى متعذرا ما دام قد مضى على تاريخ الجريمة حوالى الخمس السنوات • مهمتى كشف السر عن الأسباب الخفية لطمس معالم الجرائم فى الضـــاحية ، عن المصلحة المشتركة التى تشد الناس الى ذلك الفقراء والأغنياء ورجال الأمن •

غادرت حجرتى لأمارس العمل الذى اخترته عندما قابلنى

رسول جاء يستدعينى الى مكتب الأمن • ذهبت من فورى قلقا متشائما • ما معنى الاستدعاء ؟ •• هل رابهم شىء فى سلوكى ؟ •• هل أواجه التحدى وأنا لم أكد أشرع فى العمل ؟•

ومثلت أمام الضابط الذى سألنى عن اسمى وعملى ، ذكرت الاسم وقلت :

ــ سواق تاكسى •

وقدمت بطاقة الشخصية والرخصة فراح يتفحصهما بعناية وأنا مطمئن الى أنه لن يجد ما يريبه فيهما ، ثم تفحصنى بنظرة ثاقبة وسألنى :

ــ لم اخترت هذه الضاحية للعمل ؟

فقلت بعد تفكر :

ــ انه حق مشروع لكل مواطن ولا يستدعى فى اعتقادى استجوابا •

فأعاد سؤاله ببرود :

ــ لم اخترت هذه الضاحية للعمل ؟

فآثرت السلام حرصا على نجاح مهمتى وقلت :

ــ عملها المحدود مناسب لرزقى وصحتى واتجه اختيارى الى هنا لأنى أصلا من مواليد الضاحية •

ــ ألك بها أهل أو أقارب ؟

ــ كلا •• هجرتها منذ حوالى ربع قرن ••

ــ الجريمة خلقت نفورا عاما من الغرباء •

كدت أسأله هل عرفوا هوية المجرمين ولكنى أمسكت عن حكمة وتساءلت :

ــ هل تقرر ابعادى من أجل ذلك ؟

فرد الى البطاقة والرخصة وقال ببرود :

ــ اذهب ..

ذهبت وأنا أفكر بمدى ارتياب الرجل بى ولكنى لم أجد فى سلوكى ما يسوغ ذلك على الاطلاق فنحيته عن شعورى لأمضى فى طريقى بلا ظنون وهمية قد تربكنى وتكشف سرى . وكنت أوصل رجلين فى التاكسى الى المحطة عندما سمعتهما يتحاوران عن الجريمة :

ــ فظيعة فظيعة ، أى قسوة !

ــ كانت بارعة الجمال !

ــ ولكن النار لم تبق منها على شىء ؟

ــ أعنى لو لم تكن جميلة لما تعرضت للقتل ، أنت تفهمنى طبعا ..

ــ طبعا ، وانقضاء خمس سنوات على دفنها يجعل العثور على دليل أمرا مستحيلا ..

فتدخلت فى الحديث قائلا :

ــ قرأت فى الجرائد أنه يمكن بفحص الموميات علميا معرفة أسباب الوفاة ، فاذا كان السبب جريمة أمكن بمناقشة الملابسات التاريخية تحديد القاتل فى شخص أو طائفة ..

فضحك الرجلان وقال أحدهما :

ــ على عهد الفراعنة كان الناس يموتون أو يقتلون لأسباب مقنعة ..

وضحك الرجلان مرة أخرى .

قلت لنفسى ان أحاديث الناس لا تدل على أنهم متواطئون ، وتقطع بأنهم غير راضين حتى ولو كانوا متواطئين ، فلماذا يشتركون فى اخفاء معالم الجريمة والتستر على القاتل أو القتلة رغم ارادتهم أو رغم نفورهم ؟ ! .

ومرة كنت أوصل أسرة الى عيون المياه فدار الحديث أيضا حول الجريمة .

ــ ما يقال بخلاف ذلك فهو مجرد اشاعة .

ــ أنت تعلم كما نعلم نحن أنها الحقيقة ..

وتوثبت لارهاف السمع ولكنى لمحت فى المرآة امرأة تحذر المتكلمين مشيرة بذقنها نحوى ! . وجعلت أتقلب فى شتى الأماكن كما أتابع الأحاديث فى التاكسى ، أسجل الكلمات فى ذاكرتى ، أناقشها ، أفكر بأبعادها ، أستنتج متعاملا مع الاستقراء والقياس ، مستفيدا من كل ملاحظة .

وقد سألت رئيسى وكنت أزوره كلما أوصلت راكبا الى العاصمة :

ــ ألا يوجد احتمال أن يكون مرتكب تلك الجريمة من خارج الضاحية ؟

ــ ليس ذلك بالمستحيل ، وفى تلك الحال تكون الجريمة عادية وتأخذ العدالة مجراها ••

ــ ما الذى يحمل فقراء الحى الشرقى على الاشتراك مع سادة الحى الغربى فى اخفاء جريمة رغم حدة التناقضات بين الجانبين ؟

ــ تساؤل يقطع بأنك بدأت تضـع قدمك فى الطـريق الصحيحة ••

ــ أرجح أن يكون القاتل من السادة !

ــ تفكير سليم جدا !

ــ هل يعنى ذلك أن القتيلة من الجانب الآخر ؟

ــ قد وقد ••

ــ السر اذن يكمن فى المصلحة المشتركة بين الجميع حتى رجال الأمن أنفسهم ؟

ــ هذه هى المسألة ••

وعلمت مما يقال فى الضاحية أن الجثة اكتشفت وهم يحفرون الأساس لبناء مصحة الأمراض العقلية ، وعرفت أول من عثر عليها من البنائين ، وهو صعيدى من هواة الجلوس فى مقهى الشمس بالحى الشرقى • وعملت على التعرف به ومجالسته فشربنا الشاى معا • وسألته :

ــ كيف كان شعورك عندما عثرت على الجثة المطمورة ؟

فقال بفخار :

ــ ناديت أصحابى ثم جاءت الشرطة ••

تبادلنا حديثا سطحيا مؤجلا الأسئلة الهامة للقاء آخر ، ولكنى لم أعثر عليه بعد ذلك ، وقيل ان ظروفا اضطرته للسفر فورا الى الصعيد •• ترى هل وقع ذلك بمحض الصدفة ؟ • ساورنى القلق فخفت أن أكون مراقبا على غير ما أتصور ، وشحذت انتباهى ما وسعنى ذلك ، ولكنى لم أكف دقيقة عن نشاطى المرسوم • فتحت صدرى لكل علاقة ، استكثرت من الأصدقاء ، قدمت الخدمات بلا حساب ، وظل حديث الجريمة يجرى على كل لسان ، فى البيت والمقهى والسوق والتاكسى ؛ يتردد بغيظ وحنق ، وأحيانا بسخرية ، ولكنه لا يشق حجاب الغموض أبداً ، ثمة شىء فى الأعماق يعوزه التعبير ، يكبته أنه فى اللاوعى ، أو الخوف أو الخجل أو الرغبة المحمومة فى الهرب • ولاحظت ذات يوم ــ وأنا فى السوق ــ أن امرأة فقيرة دمعت عيناها وهى تصغى الى حديث الجريمة الذى لا ينقطع • جذب وجهها عينى بفقره وجماله الذابل المتوارى وراء غلاف من الاهمال والتعاسة • ترى هل تبكى بدافع عاطفة انسانية عامة أو لأسباب أشد خصوصية ؟ • وقررت فى الحال تعقبها من بعيد لعل وعسى • ولما وصلت الى آخر منطقة فى السوق اعترضنى صوت قائلا :

ــ ها أنت تهيم على وجهك مهملا عملك !

التفت فرأيت الضابط واقفا يرمقنى بنظرته الباردة ، فقلت :

ـ جئت أتسوق •

ـ وأين التاكسى ؟

ـ فى الميدان الجديد •

ومضى الى سبيله تاركا اياى فى حيرة • فتشت بعينى عن المرأة ولكنها كانت قد ذابت فى الزحام • ورجح لدى أننى أواجه تدبيرا محكما لا صدفة عمياء ، وأن علىّ أن أضاعف من الحذر •

وتفرغت لعملى كسواق تاكسى أياما متتابعة ، وكلفت خاطبة أن تبحث لى عن عروس مناسبة ، ثم تسللت ذات ليلة ، عند منتصف الليل ، الى الحانة الموجودة عند مشارف السوق • وجدتها مكتظة بالشاربين ، تضج بالنكات والأغانى ، حارة بالأنفاس والدخان والهواء الفاسد • شربت قليلا ولكنى تظاهرت بالنشوة والمرح ، وأرهفت حواسى لتصيد الفلتات والشوارد • وكالعادة تطعم كل حديث ، كل حوار ، كل مزاح ، بحديث الجريمة • قلت لنفسى متعجبا :

ـ كأنهم جميعا مجرمون أو ضحايا أو الاثنان معا •

وسمعت ضمن الأحاديث حوارا حادا ذا دلالة فيما أعتقد • قال الرجل محتجا :

ـ نحن ضعفاء •

فأجابه بحدة :

ـــ بل جبناء •

ـــ ماذا تفعل اذا اعترض سبيلك سياج من النيران ؟

ـــ أرمى بنفسى فيها !

ـــ ارم بنفسك وأرنا شجاعتك •

وعربدوا ضاحكين • وانثال على نثار من الكلمات صالح لدى ربطه واعادة تكوينه لاعطاء اعترافات خطيرة أو ما يشبه ذلك • تابعت ذلك وأنا ألهث من شدة الانفعال • وشىء جذب رأسى نحو مدخل الحانة كما يقع لدى توارد الخواطر فرأيت الضابط يتسلل خارجا ! أفقت من نشوتى وانفعالى ، وتنبهت فى غريزة المهنة فأدركت فداحة الخطر الذى يحدق بى • امتلاك سر خطير من هذا النوع يعنى الهلاك ، وأنا خبير بأساليب مهنتى ، ولذلك فعلى أن أفكر بصفاء ذهن • يجب مغـــادرة الحانة قبل أن تفتعل معركة من أجل القضاء على قضاء وقدرا ، يجب تجنب السير فى الشوارع الخالية ، لا تستقل التاكسى حذرا من انفجاره لأسباب مجهولة ، لا ترجع الى حجرتك حتى لا يغتالك كائن جاثم فى ركن منها • الى المحطة رأسا عن طريق شارع المسلة ، وهناك تتعدد الوسائل للوصول الى العاصمة •

وفى صحن المحطة شعرت بيد توضع على كتفى فالتفت متوثبا فرأيت الضابط • وقفنا نترامق مليا حتى ابتسم قائلا :

ـــ جئت لأودعك بما تقضى به أصول الزمالة ٠

عدلت عن المكابرة وتمتمت ساخراً :

ـــ شكرا ٠

وهو يضحك :

ـــ ولم تترك التاكسى وراءك بلا سواق ؟

فقلت ساخرا أيضا :

ـــ أتركه فى أيد أمينة !

وهو يعاود الضحك :

ـــ ترى ما الملاحظات التى تمضى بها ؟

ففكرت غير قليل ثم قلت :

ـــ أنكم لا تؤدون واجبكم !

ـــ الناس لا يتكلمون ٠

ـــ أعلم أن أرزاق البعض بيد البعض الآخر ولكن الغضب يتجمع فى الأعماق وللصبر حدود ٠

فهز رأسه باستهانة وتساءل :

ـــ ما واجبنا فى رأيك ؟

ـــ أن تحققوا العدالة ٠

ـــ كلا ٠

ـــ كلا ؟ !

ـــ واجبنا هو المحافظة على الأمن ٠

ـــ وهل يحفظ الأمن باهدار العدالة ؟

ـ وربما باهدار جميع القيم !
ـ تفكيرك هو اللعنة .
ـ هل تخيلت ما يمكن أن يقع لو حققنا العدالة ؟
ـ سيقع عاجلا أو آجلا .
ـ فكر طويلا ، بلا مثالية كاذبة ، قبل أن تكتب تقريرك ، ماذا ستكتب ؟
فقلت بامتعاض :
ـ سأكتب أن جميع القيم مهدرة ولكن الأمن مستتب !

المقابلة السامية



قمت بجولة فى العمارة الجديدة الخالية • هى جديدة بكل معنى الكلمة ، فواحة برائحة الطلاء ما زالت ، تحتل مربعا صقعا ، وعما قليل تعلق فى أعلى مدخلها لافتة كبيرة تحمل اسم مصلحتنا العتيدة • وكنت وراء الملابسات السعيدة التى أدت الى اختيارها وتأجيرها للمصلحة • كنت كاتبا منسيا بالأرشيف ولكنى اخترت كاتبا للجنة التى شكلت للبحث عن مقام جديد للمصلحة يضم أشتاتها المتناثرة فى أحياء متباعدة بالمدينة الكبيرة • وكنت أعبر الطريق كل صباح أمام موقعها فى مسيرتى اليومية الى المصلحة القديمة فدعوت اللجنة لمشاهدتها ، وسرعان ما اتخذت الاجراءات الادارية ثم توقع العقد مع مالكها •

قمت بجولة فى العمارة الجديدة الخالية • لم تكن اجراءات النقل قد بدأت بعد ، وكنت مارا كالعادة فى الصباح فأغرانى الزهو ، وشعور وهمى بالملكية ، بالقيام بجولة بيروقراطية • وكان البواب قد عرفنى فى الزيارات الرسمية السابقة فاستقبلنى باحترام جاهلا — لطيبة قلبه — مدى البؤس الذى أعانيه كموظف منسى حقير ، ذلك البؤس الذى أكده كونى رب أسرة مكتظة لا تذوق اللحوم الا فى المواسم •

وفى فناء العمارة صادفت رجلا لا أدرى من أين جاء • غاظنى منه بصفة خاصة أنه كان يسير بأقدام ثابتة شديدة الرسوخ والثقة • ظننته جاء يبحث عن شقة يســتأجرها فتوقعت منه تحية متوددة ولكنه تجاهلنى بادىء الأمر تماما ، ومضى يلقى على ما حوله نظرات متعالية خليقة بأن تثير حنق موظف ــ مهما قيل عن تعاسته ــ فهو مكتشف العمارة ، فضلا عن أنه ممثل السلطة التى ستحتلها بعد أيام قلائل • وتحفزت للتحرش به ولكن فى حدود المعقول اذ كان ربعة متين البنيان مهيب الطلعة ، واذا به يبادرنى ــ بلا تحية ــ قائلا :

ــ أنت من طرف أصحاب العمارة ؟

فقلت باعتزاز :

ــ أنا عضو لجنة المصلحة التى استأجرت العمارة •

فقال بهدوء :

ــ عظيم ، أريد أن ألقى نظرة عامة على الداخل •

ــ ولكن من حضرتك ؟

فقال بتلقائية وبساطة :

ــ أنا مدير المصلحة !

صعقنى قوله فتشنجت أطرافى ، وسرعان ما انحنيت بطريقة آلية كرد فعل سريع للشحنة الكهربائية التى بعثها شخصه فى كيانى المتهالك ، وقلت بخشوع :

ــ لا مؤاخذة يا صاحب السعادة •

فقال بعدم اكتراث :

ــ تقدمنى ••

اعتبرت أن السماء فتحت أبوابها فى وجهى وأغدقت على بركة ورحمة باختيارى مرشدا لسعادته • وتقدمته فى رشاقة ، من مكان لمكان ، واصفا الموقع ، معددا المزايا ، مستجديا نظراته الكريمة الى الحجرات والأبهاء والردهات ، مشـــيرا بمنتهى الذوق واللباقة الى المرافق • وتطوعت قائلا :

ــ أعتقد يا صاحب السعادة أن الدور الثالث هو أليق الأدوار بمقامكم ، فهو مرتفع لدرجة لا بأس بها تعتبر مانعا حاسما لضوضاء الطريق وفى الوقت نفسه لا تعد مشكلة فى الصعود أو النزول فى حال تعطل المصعد ••

وفى فرصة تالية قلت :

ــ الركن البحرى ذو مزايا جغرافية لا يستهان بها فالطريق يحده من جهتين أما الجهة الثالثة فتقع بها محطـــة بنزين منخفضة ، فهو ممر دائم للهواء وضوء الشمس •

وفى فرصة ثالثة قلت مشيرا الى أضخم حجرة :

ــ هذه حجرتكم ، وممكن وصلها بالحجرة التالية بهدم الجدار لتتسع للاجتماعات ، وشق باب فى الجدار القبلى ليفتح على السكرتارية الخصوصية •

وقرأت أثر ذلك كله فى وجهه السمح رضى وارتياحا ،

ورجعنا الى الفناء بعد جولة سعيدة موفقة وأنا ثمل بالهام سماوى من عنف الفرح • وتفضل سعادته فسألنى :

ــ وأنت فى أى ادارة ؟

فقلت متلقيا طاقة النجاة ببراعة :

ــ كاتب بالأرشيف يا صاحب السعادة ، كاتب منسى ، ولى شكوى قديمة ••

ولكنه قاطعنى قائلا :

ــ فيما بعد •• فيما بعد •

فاعتذرت عن تسرعى قائلا :

ــ لا مؤاخذة يا صاحب السعادة ، سأرفع مظلمتى فيما بعد ! •

ومضى الى الخارج وأنا أهرول فى أثره فصادفه بياع جرائد فأخذ مجلة وكتابا بلغ ثمنهما خمسة وعشرين قرشا ، وتبين لى أن المدير لا يجد نقودا صغيرة تفى بالثمن وأن البياع لا يملك فكة لورقة كبيرة ، حتى هم المدير بارجاع المجلة والكتاب ، ولكننى بادرت ــ مدفوعا بأريحية ملهمة ــ بدفع المبلغ المطلوب • وتردد المدير قليلا ثم سلم بالواقع قائلا :

ــ تعال من فورك الى مكتبى لأخذ نقودك •

وذهب يتمتم :

ــ شكرا ••

تركنى فى دوامة من انفعالات السعادة والأشواق التى

المجهول بحيث كان من أيسر الأمور أن تصدمنى سيارة وأنا غارق فى بحر الوجد والأمل • وثبت فى يقينى أن صفحة جديدة من الاشراق تفتح فى تاريخى الملىء بالمتاعب والمحن ، فقد تعرفت بالمدير العام ، وعملت له مرشدا ، وأطلعته على سوء حالى ، ووعد بالنظر فى مظلمتى ، وفى لحظة مباركة محفوفة بأنفاس الملائكة أصبحت له دائنا بخمسة وعشرين قرشا • ومعاذ الله أن أطالبه بالدين أو أن أذكّر أحدا به ، فهو القربان الذى يهبنى عطفه ويفتح لى عند الضرورة بابه • أجل انه مبلغ جسيم يقتضى اتخاذ اجراءات تقشف جديدة حتى يتحقق نوع من التوازن يكفل لى أدنى مراتب الحياة حتى ينقضى الشهر ولكن كل شىء يهون الا أن أقطع بيدى أسباب القربى التى تشدنى الى رحمته •

وتم النقل الى العمارة الجديدة ، وكالعادة استقر بنا المقام — نحن موظفى الأرشيف — فى البدروم • ولم أكف عن التفكير فى العلاقة الخفية السعيدة التى تربطنى بصاحب السعادة . ولم أذهب الى مكتبه للمطالبة بالمبلغ كما أمر ولم يرسله الى مع أحد موظفى مكتبه والحمد لله • ومرت الأيام تباعا حتى ساورنى خوف أن يكون قد نسينى فى غمار شواغله الكثيرة اللامحدودة • وأن تفلت من يدى فرصة العمر • واستخرت الله ، وتحوطت عليه ، ثم قررت أن أطلب مقابلة المدير العام •

وقصدت حجرة السكرتير الخاص ولكن الساعى أعترض سبيلى ، وأفهمنى أن السكرتير مشغول جدا ، وأبدى استعدادا لابلاغه عن حاجتى ، فقلت له :

ــ أرجو تحديد موعد للتشرف بمقابلة المدير العام •

فخطف الساعى نظرة جانبية من بدلتى المهلهلة ولكنه غاب عنى دقيقة وراء الباب المغلق ثم رجع وهو يقول :

ــ أكتب حاجتك على عرضحال تمغة وأرسلها بالطريق الادارى المتبع •

ولم تجد معه أية محاورة فقد وجدته مغلقا صامدا مثل الباب الذى يجلس أمامه • ورجعت الى مكتبى فريسة لقهر معذب ولكن بارادة مصممة على الوصول مهما كلف الأمر • ومن توى لجأت الى رئيسنا فى الأرشيف وهو كهل يشاطرنا البؤس والهوان ولا يتقدمنا الا فى العمر فطمعت أن أجد عنده تجاوبا ورحمة • كاشفته برغبتى فى مقابلة المدير العام وسألته الرأى والنصيحة فسألنى :

ــ ولم تسعى الى هذه المقابلة العسيرة ؟

ــ أريد أن أعرض عليه شكواى •

ــ ألسنا كلنا فى البلوى سواء ؟

ــ ولكنه شجعنى على ذلك !

ــ حقا ؟ ! •• متى وكيف ؟

فقصصت عليه الجانب الذى يهمه من لقاء العمارة فتفكر قليلا ثم قال :

ــ تلك كلمة طائرة عابرة لا يعول عليها •

ــ لن أضيع على نفسى وأولادى فرصة قل أن تجود بمثلها السماء •• .

ــ نصيحتى أن نقلع عن تصميمك •

فهتفت بحماس :

ــ انه أمل حياتى الوحيد •

فجعل يهز رأسه مفكرا فلم أر مفرا من اطلاق الرصاصة الأخيرة فهمست فى أذنه :

ــ سأودع لديك سرا فى ضميرك النقى ، لقد اقترض سعادته منى خمسة وعشرين قرشا !

نظر الكهل فى وجهى بذهول متجسم فقلت بحرارة :

ــ صدقنى فأنا أحادثك وأنا فى كامل قواى العقلية •

وقصصت عليه قصة النقود التى أدينه بها فسألنى بارتياب :

ــ هل سبق لك أن رأيت مديرنا العام ؟

ــ كلا •

ــ من أدراك أن ذلك الرجل هو المدير ؟

ــ لا شك فى ذلك ألبتة •

ــ ولم لا يكون رجلا عابثا استغل طيبة قلبك ؟

ـ مستحيل •• دعنى أصفه لك ••

ولكنه قاطعنى قائلا :

ـ لا جدوى من ذلك فأنا لم أره الا لمحا منذ سنوات ومن بعيد ••

ـ على أى حال أنا واثق من أنه المدير العام •

ـ حكايتك حكاية ••

فقلت متجاوزا الجدل :

ـ خذنى على قد عقلى ، ودلنى على كيفية رفع شكوى للمدير العام •

ـ عظيم ، تكتب الشكوى على عرضحال تمغة وتقدمها الىّ بصفتى رئيسك المباشر فأعتمدها ثم ترفع الى مدير الادارة ليعتمدها بدوره ثم ترفع الى المراقب العام ليعتمدها بدوره ثم ترسل الى مكتب المدير العام ، وثمة نصيحة لوجه الله وهى ألا تذكر أمام أحد حكاية الخمسة والعشرين قرشا !

وكتبت الشكوى بعناية ، قدمتها لرئيسى المباشر ، وقع عليها برجاء العطف ، مضيت بها الى سكرتير مدير الادارة ، دسها تحت تل من الشكاوى ثم انصرف الى عمله ، سألته :

ـ متى تتفضل بعرضها على مدير الادارة ؟

فأجاب دون أن يرفع بصره عن أوراقه :

ـ لا شأن لك بذلك •

ـ ولكنها شكوى من نوع خاص ، أعنى أننى ما كتبتها الا بايعاز من سعادة المدير العام نفسه !

فرمقنى بنظرة غريبة وتساءل ساخرا :

ـ سعادتك قريبه ؟

ـ تلك هى الحقيقة بلا سخرية .

ـ ستعرض فى حينها أو خذها واذهب .

ـ لا تزعل ، متى أرجع لآخذها ؟

ـ بعد أن يتم عرضها .

ـ ومتى يتم عرضها ان شاء الله ؟

ـ ستعرض فى حينها .

وانصرف عنى بحركة حاسمة طاردة فرجعت الى مكتبى وأنا أسب الكادر وشاغليه ما عدا سعادة المدير العام طبعا . ورجوت رئيسى أن يتشفع لى عند سكرتير مدير الادارة ولكنه رفض بغرور الشاب وقلة أدبه . ومرت الأيام وأنا أنتظر وأتصبر .

وذات صباح وزميل لى يراجع معى ميزان الوارد مال نحوى وسألنى هامسا :

ـ هل حقا أقرضت المدير العام خمسة وعشرين قرشا ؟

فانزعجت جدا وتولانى الذعر وسألته عمن أخبره بذلك فقال انه سمع همسا يدور حول الموضوع فى الأرشيف . يا دافع البلاء ارحمنا . واتهمت رئيسى ولكنه أقسم لى بأولاده

أنه لم ينبس بكلمة واحدة ، فاتهمت زوجتى ـ ولها صديقات بين زوجات الموظفين ـ ولكنها أنكرت اما عن صدق أو عن خوف . انسكب سم القلق فى نفسى ، وتوهمت أن الأنظار تلاحقنى بدهشة وسخرية ، وأن أصحابها عما قليل سيرموننى بالعته أو الجنون ، ولذلك كان على أن أسرع فى مسيرتى قبل أن يقع ما ليس فى الحسبان . وذهبت الى سكرتير مدير الادارة ، فلم يرد تحيتى ولكنه أشار بامتعاض الى شكواى فتناولتها شاكرا وهرعت من فورى الى سكرتير المراقب العام . قدمت الشكوى ، أردت أن أشرح له أهمية الموضوع ولكنه بادرنى قائلا :

ـ اتركها واذهب .

ولكى أرضيه تحركت نحو الباب غير أننى سألته :

ـ متى أرجع لتسلمها ؟

ـ لا ترجع .

فمن اليأس تجرأت على أن أسأل :

ـ والشكوى ؟

فرفع عينيه الى السقف كأنما يشهد الله على قحتى ، وعند ذاك تطوع أكثر من شخص من المحتشـدين فى الحجـرة ينصحوننى بالامتثال وتنفيذ الأمر ، حتى بهت واجتاحنى الخوف ، وتطوع الساعى لأخذى من ذراعى بلطف يوحى

بالعطف ، وأفهمنى فى الردهة بأن مكتب المراقب العام يرسل بريده مباشرة الى مكتب المدير العام •

ــ وكيف أعرف أنها أرسلت ؟

ــ تعال بعد أسبوع أو عشرة أيام وقابل كاتب الصادر بمكتب المراقب العام فيعطيك الرقم والتاريخ وبهما تستدل على مصير شكواك فى مكتب المدير العام ••

فقلت مداريا عجزى :

ــ تصور أننى سألقى من الاحترام فى مكتب سعادة المدير العام ما لم ألق واحدا على مائة منه فى مكتبكم !

فدعا لى الساعى قائلا :

ــ ربنا يرفع قدرك أكثر وأكثر ••

رجعت الى مكتبى ، قلت لنفسى اشتدى أزمة تنفرجى ، وقلت أيضا ان عذاب تلك الأيام سيكفل لى دخول الجنة بغير حساب ، وقلت أيضا انه ليس بعد الظلام الا النور ، وأنه ان عاجلا أو آجلا فسوف تدركنى رحمة مفـــرج الـــكروب • أما الأعين الساخرة فلم تعتقنى ، لم ترحمنى ، ولم تقنع باستراق النظر ، فهذا زميل يتساءل :

ــ كيف •• متى •• فى أى ظروف غريبة أقرضت المدير العام خمسة وعشرين قرشا ؟ !

وهذا آخر يسأل :

ــ ألم يرد المدير العام دينه ؟

ومرة لاحقنى صوت يقول :

ــ هذا هو الشحاذ الذى أقرض المدير العام ••

فدعوت الله أن يمدنى بصبر نبيه أيوب ، وظــل أملى فى رحمته قويا لا يتزعزع ، وتذكرت سخرية آل نوح منه وكيف كانت العاقبة للمتقين • ولم أذهب الى كاتب الصادر بمكتب المراقب العام الا بعد مرور أسبوعين كاملين فأعطانى رقم وتاريخ الكتاب الذى أرسلت معه الشكوى الى مكتب المدير العام ، وسألته بأدب :

ــ متى يمكن أن أعرف النتيجة فى مكتب المدير العام ؟

فأجابنى بامتعاض وحنق لا مبرر لهما على الاطلاق :

ــ علم ذلك عند علام الغيوب !

على أى حال قد وصلت الشكوى الّى مكتب المدير العام ، وسوف يتذكرنى من فوره ، ولعله يستدعينى الى مقابلته ، أو يجبر فى الأقل خاطرى ، وانهارت علىّ الأحلام السعيدة ، ومنيت نفسى بترقية أو علاوة تدعم رزق الأولاد • وكنت راجعا الى الأرشيف حاملا البريد وأنا أتلو آية الكرسى عندما اعترضنى موظف ومضى يسألنى :

ــ هل حقا ••

وكنت قد ضقت بتحرش الساخرين فقاطعته قبل أن يتم كلامه :

ــ اخرس يا قليل الأدب •

فتراجع الرجل ذاهلا وهو يقول :

ــ أنت مجنون بلا شك •

فصحت به :

ــ اذهب والا خلعت الحذاء ومزقته على رأسك •

وسرعان ما حال بيننا أهل الخير والشر • وبعد يوم استدعيت الى ادارة التحقيقات • قال لى المحقق :

ــ أنت متهم بالاعتداء بالقول على مراجع الحسابات وبالشروع فى ضربه •

فقلت بذل :

ــ أنا رجل مسكين ، لقد أراد أن يسخر منى فزجرته ، هذا كل ما حصل •

وقال مراجع الحسابات انه أراد أن يسألنى عن ورود مكاتبته من الخزانة ، وشهد على صدق قوله زملاء له وزميلان من الأرشيف • وضح صدقه حتى لى أنا ، وأدركت أننى أسأت لفهم والتصرف ، ودافعت عن نفسى قائلا :

ــ كثيرون يسخرون منى وقد حسبته واحدا منهم •

وسألنى المحقق :

ــ لم يسخرون منك ؟

فلذت بالصمت ولكن كثرة من الشهود فضحت حكاية القرض حتى هتفت :

ــ ذاك محض افتراء ، واقعة لا أساس لها ، ألصقت بى ظلما ..

وكادت المناقشة بينى وبين الشهود تجاوز حدود الأدب الى العنف . وغادرت ادارة التحقيقات مغلوبا على أمرى تماما . وبعد أيام استدعانى رئيسى الكهل وقال لى بحزن :

ــ تقرر خصم خمسة أيام من مرتبك .

فصرخت :

ــ ذلك ظلم بين ، أنا لا أكاد أجد قوت الأولاد .

ــ ليتك تمالكت أعصابك .

ــ أخطأت ، ولكن لى عذرى ، ترى هل تبلغ حكاية القرض مسامع سعادة المدير العام ؟

فقال الكهل بثقة :

ــ لا يجرؤ أحد فى المصلحة على ابلاغها له .

رغم أحزانى جميعا فان ثقتى بالله لم تتزعزع ، وقلت لنفسى انه ــ جل جلاله ــ سيخرجنى من أحزانى كما أخرج يوسف من سجنه . وبقدر ما حل بى من سوء تماديت فى تخيل السعادة الموعودة وآمنت باقبالها القريب . وانتظرت طويلا

ثم ذهبت الى كاتب الوارد بمكتب صاحب السعادة لأسأله عما تم فى شكواى فقال لى بجفاء مجهول الأسباب :

ــ انى أخصص يوم الخميس للاستفسارات •

وكان اليوم الأحد ولكنى كنت قد لقنت الحكمة فى ادارة التحقيقات فرجعت بلا تعقيب • وشكوت حالى الى رئيسى فمضى بى الى وكيل المخازن ، وهو صديق رئيسى وقريب لكاتب الوارد ، فقبل الرجل أن يتلفن الى قريبه مستفسرا عن شكواى ، ولبث يصغى الى كلامه غير المسموع لنا ، ثم أعاد السماعة وقال :

ــ آسف ، لقد حفظ الطلب !

اغتالنى الخبر فسقطت آمالى جثة هامدة ، وقلت وأنا مطمور تحت الأنقاض :

ــ هل عرض الطلب على سعادة المدير العام ؟

ــ طبعا ، هو الذى أمر بالحفظ •

ــ مستحيل !

فابتسم الرجل بلا تعليق فقلت :

ــ كنت أتوقع أن يدعونى لمقابلته !

فحدجنى الرجل بنظرة غريبة دون أن ينبس • وعدت مع رئيسى وأنا أقول :

ــ لا أصدق •

فقال الكهل بنبرة مواسية :

ـ ولكنه المصير المحتوم لجميع الشكاوى •

ـ ولكنه أوعز الى" بكتابتها •

ـ ما زلت أعتقد أنك كنت ضحية رجل مهذار •

ـ كلا •• كلا •

ـ اذن فلعله نسى ، وشواغل المدير تنسى •

ـ والعمل ؟

ـ سلم لله أمرك ••

ولكن الاصرار كان قد ملك على أمرى • وبكل همة رحت أتحرى مواعيد المدير وحركاته وسكناته • وقررت ألا أذعن للقوة الباغية ولا للأوامر المكتبية العمياء •

***

وتحركت سيارة المدير لتنتظره أمام العمارة • وقف البواب والسعاة صفين بالاضافة الى شرطى الحراسة • وكنت متواريا وراء لافتة كبيرة فى المدخل سجل عليها دعوة لمزايدة • وترامت من ناحية الفناء ضجة وتراءى موكب المدير قادما • وعندما حاذانى فى سيره بسملت ثم وثبت نحوه لأجثو بين يديه مستعطفا •

وصاح رجل :

ـ المجنون •• حذار يا صاحب السعادة ••

ووقع اضطراب شامل وضوضاء عالية .

لم أدرك بوضوح ما حدث . مادت بى الأرض . حوصرت تحت ضغط عشرات من الأيدى القوية .

ماذا أقول بعد ذلك ؟ . لقد جرى معى تحقيق خطير باعتبارى مجرما سياسيا ، ولما تبين لهم خطأ الرأى وجهوا لى تهمة الشروع فى الاعتداء على المدير انتقاما لحفظ شكواى .

وقد تعلمت فى السجن حرفة النجارة ، وفى ميدانها أكدح اليوم لتربية الأولاد ..

أهلاً...!



دقة أيقظته من شروده ، دقة ماسح الأحذية التقليدية ، رفع عينيه عن النارجيلة فرآه واقفا أمامه يرمقه بعين صياد • مضت لحظة وهما يترامقان ثم تهلل وجه الرجل • هو أيضا ابتسم •

ــ حمدا لله على السلامة يا بيك •

ــ أهلا •• كيف حالك ؟

وأشار اليه فقرفص عند قدميه فأعطاه حذاءه • لم يره منذ عشرين عاما ، منذ انقطع عن المقهى القديم • كان فتى يافعا متين البنيان متدفق الحيوية ، يطوف بأرجاء الحى فى رشاقة النحلة ، يمسح الأحذية ، ويروى النوادر والملح •• ها هو قد جف عوده وتغضن وجهه وأدركته شيخوخة مبكرة •

ــ لم أرك منذ عمر طويل يا بيك ؟

ــ الدنيا !

ــ سافرت ؟

ــ كلا •

ــ وكيف هان عليك مكانك المفضل ؟

ــ ها أنا أرجع اليه عند أول فرصة فراغ •

ــ هل مرت الأعوام فى عمل متواصل ؟

ـــ نعم •

ـــ ربنا معك •

منذ عشرين عاما كانا يكافحان عدوا مشتركا هو الفقر على اختلاف موقعهما منه •

ـــ لم تتغير يا بيك والحمد لله •

ـــ أنت أيضا لم تتغير !

ـــ أنا ؟ !

وضحك فى سخرية ورثاء •

ـــ ربنا يقويك !

ـــ كنت فقيرا حقا ولكن الدنيا كانت رحيمة ويسيرة •

هكذا كانت ، ترى هل يخطر بباله أنه يملك عمارة وفيللا وسيارة ؟ ، هل يتصور أنه يخاطب لصا أريبا فى ثوب موظف كبير ؟ !

ـــ الحياة أصبحت شاقة •

ـــ جدا جدا يا بيك •

ـــ ولكنك مؤمن والايمان كنز لا يقدر بمال •

ـــ الحمد لله •

ـــ قديما كان العيش يتيسر لك ببضعة قروش حقا ولكن كان يتسلط على البلد اقطاعيون يبذرون الملايين على ملاذهم ••

ـــ انتهى أمرهم يا بيك ولكن حالى ازداد سوءا ••

ـ بسبب عملك فقط أما ملايين الفلاحين والعمال فقد تحسنت أحوالهم ..
ـ انى لا ألقى الا شاكيا مثلى ..
ـ أنت محصور فى بيئة معينة ، هذه هى المسألة ..
ـ ومتى نتحسن بدورنا ؟
ـ كل آت قريب .
ـ ولكن مرت عشرون سنة ؟
ـ ما هى الا لحظات فى عمر الزمان .
ـ علينا أن ننتظر عشرين سنة أخرى ؟
ـ لا أدرى ، قد يضحى بجيل فى سبيل الأجيال القادمة .
ـ ولكنى أرى يا بيك كثيرين من المحظوظين السعداء ؟
ـ مظاهر خادعة ، لكل شكواه ومتاعبه .
ـ أراهم فى السيارات الفاخرة كأيام زمان . ؟
ـ هل تصورت أعباءهم القاتلة ؟ ، هل تصورت ما يؤدون للدولة من خدمات ؟ ، ثم أمن يعمل كمن يرث ؟

ابتسم مستسلما وهو مكب على عمله فى تكاسل ليطيل فرصة الحوار ، وجعل ينظر اليه بمودة صافية ، وفى نظرته تتجلى أشواق للذكريات المشتركة الماضية .

ـ هل أضايقك يا بيك ؟
ـ أبدا .. هات كل ما فى قلبك .
ـ الله يكرمك ، كنا نضحك ملء قلوبنا فى الماضى .

ـ وممكن نضحك الآن أيضا .

ـ ولكن ..

ـ ولكن داءنا أننا ننظر دائما الى الوراء ، دائما نتوهم أن وراءنا فردوسا مفقودا ..

ـ ألم نكن نضحك من أعماق قلوبنا ؟

ـ تذكر ، لقد رقصت يوم قامت الثورة .

ـ طبعا ، سكرت بالآمال ، سكرنا جميعا بالآمال ..

ـ ولقد تحققت الآمال ، ولولا سوء الحظ ، لولا الأعداء ... ، ماذا كنت تتوقع ؟

ـ زوال الظلم والفقر ، لقمة متوفرة ، مستقبل للأولاد ..

ـ حصل ذلك كله .

ـ دائما نسمع ولكن الأولاد ضاعوا جميعا ..

ـ واضح أنك تشكو كثرة العيال ؟

ـ انى أحمد الله ..

ـ المدارس مفتوحة لاستقبال الجميع .

ـ دخلوها وخرجوا كما دخلوا ، ولم ينجح أحد .

ـ وما ذنب الثورة ؟

ـ لا ذنب لها ، ولكننا نسكن جميعا حجرة واحدة ! ، وفى المدرسة لا يفهمون شيئا ..

ـ انكم تنشدون معجزة لا ثورة .

ـ انه حال أبناء الفقراء جميعا .

ـــ كلا •
ـــ الاستثناء لا يعول عليه •
ـــ كان اليأس القديم أنسب لكم !
ـــ ما زال المال يملك الحظ كله •
ـــ المسألة أن الأمور معقدة ، أمور الدنيا كلها معقدة •
ـــ خلنا فى أنفسنا •
ـــ ولكننا جزء من الدنيا •
ـــ هل أنتظر حتى تحل مشاكل الدنيا ؟
ـــ ليس كذلك بالضبط ولكنه تساؤل لا يخلو من حقيقة •
وضحك ليخفف من وقع قوله ثم استطرد :
ـــ ولا تنس أننا فى حال حرب •
ـــ أرجع فردة الحذاء وتناول الأخرى ثم قال :
ـــ وسبق ذلك الهزيمة •
ـــ لا داعى لتذكيرى بما لا يمكن أن ينسى •
ـــ بعد أن نفختنا الآمال حتى طرنا فى الجو •
ـــ قيل كل ما يمكن أن يقال ••
ـــ متى نحارب يا بيك ؟
ـــ هل تنتظر من وراء الحرب حلا لمشاكلك ؟
ـــ الحركة بركة •
ـــ ربما اللقمة نفسها لن تجدها •
فهز منكبيه استهانة •

ـــ سنحارب عندما نضمن النصر •
لم ينبس ولكن وضح أنه لم يقتنع •
ـــ هل تعرف معنى الحرب ؟ •• هل تتصور حالنا اذا خربت المصانع والسدود والمواصلات ؟
ـــ نفعل بهم مثلما يفعلون بنا •
ـــ ستتوقف الحياة هنا •
ـــ ليكن ، المهم أن نحرر أرضنا •
ـــ هل تهمك الأرض حقا أو أنك تريد الخراب ؟
ـــ أريد أن أحيا فى ظل العدل •
ـــ يبدو أنك تريد أن تهدمها على رءوس من فيها •
ـــ لا والله يا بيك •
خيل اليه أنه يقصده بشىء ما •
ـــ المهم النصر لا الانتقام •
ـــ أنا لا أفهم •
ـــ الأمور واضحة •
ـــ يا بيك أنا أريد النصر والحياة المعقولة ، خبرنى كيف ومتى يتم ذلك ؟
ـــ لا أدرى متى ولكنه يتم بالصبر والعمل والاخلاص ••
كأنه أصم ، يرفض التصديق والاقتناع ، وقد أنجز عمله ، أعطاه خمسة قروش بدلا من قرشين ، تهلل وجهه ودعا له بالستر ، واعترف فيما بينه وبين نفسه بأنه فى حاجة ماسة

لذاك الدعاء ، وبأنه يشاركه حيرته فضلا عن المخاوف التى ينفرد بها وحده ، ورآه يهم بالذهاب فسأله :

ـــ ما رأيك فيما قلت ؟

ابتسم مداريا شكوكه وتمتم :

ـــ كلام جميل •

ـــ وحقيقى أليس كذلك ؟

ـــ مثل كلام الراديو •

شعر بأنه يذكره بكلام الراديو طيلة عشرين عاما ، شعر بأنه يوبخه فأوشك على الانفعال •

ـــ ولكن بروح جديدة تماما •

ـــ نرجو ذلك •

ـــ ألا تريد أن تصدق ؟

فرفع درجة صوته ليقنعه بايمانه قائلا :

ـــ ما دمت تصدق فأنا أصدق •

ضحك ضحكة فاترة مقتضبة ، وسأله الرجل :

ـــ هل ترجع الى المقهى كالأيام الخالية ؟

ـــ ان شاء الله كلما سنحت فرصة ••

ـــ عندما رأيتك فرحت ورجعت فجأة الى الشباب •

ثم حياه وانصرف •

وصفق يطلب وقودا للنارجيلة الخابية •

الفهرست

دار مصر للطباعة
٣٧ شارع كامل صدقي
سعيد جودة السحار وشركاه

رقم الايداع ٣٧٢٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

الثمن ٧٠ قرش

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه